

قواعد الشيوخ

مقاومة الإخوان المسلمين ضد المشروع الصهيوني

1970-1968



تأليف

غسان محمد دوعر





قواعد الشيوخ

مقاومة الإخوان المسلمين ضد المشروع الصهيوني

1970-1968

تأليف

غسان محمد دوعر

مراجعة وتحرير

د. محسن محمد صالح



مركز الزيتونة

للدراستات والاستشارات

بيروت - لبنان

The Shuyukh Camps

The Resistance of the Muslim Brothers Against the Zionist Project 1968–1970

by:

Ghassan Mohammad Dou‘ar

Edited by:

Dr. Mohsen Mohammad Saleh

جميع الحقوق محفوظة ©

الطبعة الأولى

2018م – 1439هـ

بيروت – لبنان

ISBN 978-9953-572-09-3

يُمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما في ذلك التسجيل الفوتوغرافي، والتسجيل على أشرطة أو أقراص مدمجة أو أي وسيلة نشر أخرى أو حفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

(الآراء الواردة في الكتاب لا تُعبّر بالضرورة عن وجهة نظر مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات)

مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات

تلفون: + 961 1 80 36 44

تلفاكس: + 961 1 80 36 43

ص.ب.: 5034-14 بيروت – لبنان

بريد إلكتروني: info@alzaytouna.net

الموقع: www.alzaytouna.net

إخراج

مروة غلاييني

تصميم الغلاف

ربيع معروف مراد

طباعة

CA s.a.r.l Beirut, Lebanon

الفصل الثاني

الإخوان في قواعد الفدائيين

الإخوان في قواعد الفدائيين

أولاً: التنظيم والإدارة:

أفرز المكتب التنفيذي للإخوان المسلمين في البلاد العربية وقيادة الإخوان المسلمين في الأردن لجنة للحوار مع قيادة حركة فتح. وكان اللقاء الأول في منزل أحد الإخوان، وحضره: سعد الدين الزميلي وقنديل شاكّر شبير من جانب إخوان الأردن، ومحمد كمال القزاز وعبد العزيز علي محمد من تنظيم الإخوان المصريين في الخارج؛ بينما مثّل حركة فتح: ياسر عرفات ومحمد يوسف النجار وخالد الحسن.

وحول ذلك اللقاء، يقول الدكتور إسحق الفرحان:

لقد تداعى عدد من الإخوان، وأنا منهم للجهاد، لأن الباب مفتوح والسلطة الأردنية صارت ضعيفة، فلا بدّ من الجهاد. وجلسنا مع عرفات في بيت المرحوم الدكتور قنديل شاكّر وبحضور سعد الدين الزميلي، فقال عرفات: عليكم أن تكونوا جزءاً من فتح، قلنا لماذا؟ فقال: أنا معي إخوان في فتح مثل خليل الوزير. قبلنا في نهاية النقاش أن نعمل تحت مظلة فتح على أن تصدر البيانات باسم فتح فأسسنا ثلاث قواعد أساسية، واشترطنا أن نكون وحدنا وأن يكون التسليح والتمويل من فتح. أما التمويل، فقد كان يساعدنا عدد من الإخوان والمحسنين الكويتيين مثل عبد الله العلي المطوع¹.

وفي ذلك اللقاء، تحدث ياسر عرفات بصراحة بعدم موافقة فتح على مشاركة أيّ كان في العمل الفدائي إلا عن طريق الحركة، معللاً الحدية التي ابتدأ بها حديثه بأن السبب في موافقة قيادة فتح على نزول الإخوان في قواعد فتح ليس لاعتبارات المشاركة نفسها، بل لأن الإخوان لديهم شباب أصحاب عقيدة ومستواهم الإيماني والتربوي عالٍ، واحتكاكهم مع غيرهم بالقواعد يحسن مستوى الآخرين الذين تضمهم قواعد فتح.

هذا الأمر تأكد من خلال شهادة المدرب الإخواني الكبير عبد العزيز علي محمد (أبو أسامة)، الذي أكد من جهته بأن قيادة حركة فتح كانت تسحب بين عشرة إلى

¹ بسام العموش، محطات في تاريخ جماعة الإخوان المسلمين في الأردن (عمّان: الأكاديميون للنشر والتوزيع، 2008)، ص 68-69.

عشرين مقاتلاً من الإخوان المسلمين إلى قواعدها كل فترة بهدف استفادة مقاتليهم من شخصيات الإخوان.

ويضيف عبد العزيز علي:

وضعوا معنا في قاعدة غزة شاب من فتح، كان ينقل لهم كل شيء. ولكن النتيجة كانت عكسية، إذ عندما جاءوا لنقله إلى موقع آخر، رفض. وقال لهم أريد أن أكمل مع هؤلاء الشباب، وإلا سأعود إلى المنزل. فقد كان الأذان يرفع خمس مرات، والصلاة جماعة، ولا يوجد كفر أو سب دين، ولا تصرفات خاطئة أو إهانات توجه للمقاتلين، بل الحب والتكافؤ والإخاء. وهذا يأخذ مكان هذا في وقت الحراسة، والجميع متعاون في المهام. وكل ذلك أثر على هذا الشاب حتى أنه عندما كنا نطلب قطع سلاح، كان يعطينا أحسن القطع، ويقول أنتم أصحاب عقيدة².

بعد جلسات متعددة، شارك في إحداها عبد الله العقيل من جانب الإخوان، ومحمد راتب غنيم (أبو ماهر) من جانب فتح إلى جانب الأسماء السابقة، اتفق الجانبان على المبادئ التالية:

1. يقدم الإخوان الكوادر والمقاتلين للقواعد التي ستكون تحت راية فتح.
2. تقدم حركة فتح تجهيزات القواعد من سلاح وذخيرة وتموين ورواتب للمتفرغين، أسوة بحال القواعد الأخرى للحركة، وللإخوان الحرية الكاملة في التدريب والانتقاء والشؤون الخاصة.
3. يتم الإعلان عن العمليات العسكرية التي ينفذها مقاتلو الإخوان باسم قوات العاصفة، الجناح العسكري لحركة فتح.
4. تشكيل لجنة للتنسيق بين فتح والإخوان بمعرفة المكتب التنفيذي للإخوان المسلمين في الأردن واللجنة المركزية لحركة فتح، حيث تم اختيار الحاج سعد الدين الزميلي وإسحق الفرحان وعبد خلف داودية من قبل الإخوان، ومحمد راتب غنيم ومحمد يوسف النجار من قبل حركة فتح.

² عبد العزيز علي، مقابلة شخصية، 1997/7/30.

5. التنسيق بين القادة الميدانيين في الأمور الفنية والعسكرية، حيث كان عبد العزيز علي محمد وصلاح حسن خليل (أبو عمرو) يمثلان الإخوان، وقائدي القطاع الشمالي وقطاع الجولان يمثلان قوات العاصفة. وتولى ذيب أنيس فيما بعد مسؤولية التنسيق الميداني مع الجيش العربي الأردني والتعاون مع الأهالي في مناطق القواعد إلى جانب المسؤولية الإدارية لشؤون الأفراد. وبتنسيق مع حركة فتح، نقل الإخوان ذيب أنيس في نهاية سنة 1969، إلى منطقة إربد مسؤولاً عن ميليشيا حركة فتح هناك³.

1. التمويل والمالية:

افتتح الإخوان المسلمون أول معسكر للتدريب في منطقة الأزرق، ثم انتقل بعد ذلك إلى منطقة العالوك على طريق الزرقاء - السخنة. وكانت الدفعة الأولى التي تمّ تدريبها تتكون من أربعين مقاتلاً، تمّ إرسالهم بعد انتهاء التدريب إلى منطقة إربد، حيث أنشأت قوات العاصفة لهم قاعدة جهادية خاصة بهم، ثم توالى فتح القواعد للإخوان المسلمين حتى أصبحت ستّ أو سبع بعد إقبال أعداد كبيرة من الإخوان المتطوعين من جنسيات عربية مثل السودان، واليمن، وسورية، ولبنان، ومصر، إلى جانب فلسطين والأردن، على المشاركة في العمل الفدائي⁴.

ومع أن الاتفاق بين قيادتي الإخوان وحركة فتح يتضمن مسؤولية الأخيرة عن التمويل والسلاح، إلا أن تنظيمات الإخوان المسلمين في البلاد العربية التزمت فيما بينها بدعم تلك القواعد حتى يحصل المقاتلون على أفضل الأسلحة والتموين والذخيرة، إضافة إلى مصاريف المتفرغين التي كانت 15 ديناراً للمقاتل الأعزب و30 ديناراً للمتزوج.

صحيح أن قيادة الإخوان العسكرية في تلك القواعد كانت تقدم قوائم بأسماء حركية للأفراد حتى تستلم من قيادة القطاع الشمالي بقوات العاصفة التموين وبعض المرتبات، قبل أن يتطور التعاون بين الطرفين بحيث أصبح الإخوان يقدمون نماذج خاصة بالمقاتلين مثبت عليها الأسماء الحقيقية والحركية إلى جانب الصورة الشخصية. ولكن الإخوان أيضاً لم يعتمدوا كلياً على حركة فتح فيما يتعلق بالأسلحة والذخيرة تحديداً⁵.

³ محسن محمد صالح، الطريق إلى القدس (لندن: منشورات فلسطين المسلمة، 1995)، ص 195؛ وسعود أبو محفوظ وفاروق بدران، مرجع سابق.

⁴ محسن محمد صالح، مرجع سابق، ص 195.

⁵ عبد العزيز علي، مقابلة شخصية، 1997/7/30.

ففي الجلسة الأولى للمكتب التنفيذي للإخوان المسلمين في البلاد العربية التي أقر فيها مبدأ مشاركة الإخوان في العمل الفدائي تحت مظلة حركة فتح، طلب محمد صالح عمر وعثمان خالد مضوي، وهما من قيادة الإخوان السودانيين، من تنظيمات الإخوان أن تبين بجلاء مقدار الإسهام التي تنوي تقديمها من الرجال والمال، آخذين بعين الاعتبار قدرات وإمكانات كل تنظيم على حدة.

كان من الطبيعي أن تنبري تنظيمات الإخوان في الخليج العربي على وجه التحديد لتتحمل المسؤولية الأكبر فيما يتعلق بالإسهام المالي. وفي المقابل، تعهدت تنظيمات الإخوان الأخرى بدعم القواعد بالطاقة البشرية، حيث تعهد الأمين العام للجماعة الإسلامية في لبنان فتحي يكن بإرسال عدد من الرجال للمشاركة في العمل الجهادي.

وفيما يتعلق بالإخوان المسلمين السوريين، كان التنظيم يعاني من ضائقة مالية كون الجماعة مثقلة بالصرف على عوائل مئة معتقل في حلب، حتى إن الجماعة حصلت على مساعدة التنظيم الكويتي لسد العجز. وأما عن عدد الرجال، فإن الإخوان السوريين كانوا أكثر الإخوان مشاركة في القواعد بعد الأردن، على الرغم من أنه صدر في سورية وقتها قانون يحظر على أيّ سوري زيارة الأردن إلا إذا أثبت أن له فيها أصولاً أو فروعاً⁶.

أما الإخوان العراقيون، فقد قدموا بعد وصولهم إلى عمّان مبلغ 300 دينار عراقي إلى الإخوان المشرفين على أنشطة القواعد لكي تنفق على عوائل الشهداء، وهو مبلغ تبرع به أصدقاء من الإخوان، يحبون الجماعة ويثقون بها. ولكن فيما يتعلق بالمقاتلين، أوضح الإخوان العراقيون أنه ليس من سياسة التنظيم أن يرسل رجالاً إلى القواعد الفدائية الإخوانية في الأردن نظراً للظروف السياسية والأمنية بالغة التعقيد التي يواجهونها داخل العراق. ولكن الإخوان العراقيين أوضحوا أنه إذا بادر أحد من الإخوان، من تلقاء نفسه ورغب في المشاركة في العمل فلن يمنعه، بل وسيقدمون له المساعدة.

وعلى الرغم من الموقف المبدئي للتنظيم الفلسطيني، إلا أنه أسهم بدعم مالي صغير، في حدود ما يتوفر من مال يتجمع من اشتراكات أعضائه الشهرية، وذلك للحفاظ على معنى الارتباط الأخوي على حدّ تعبير قيادة الإخوان الفلسطينيين، ولكن مع التمسك المعلن بوضوح بموقف المعارضة. ويذكر الشيخ سليمان حمد من جهته أن

⁶ عبد الله أبو عزة، مرجع سابق، ص 137 و 139.

الإخوان الفلسطينيين في الكويت كانوا يقدمون نصف ميزانية تنظيمهم إلى الإخوة المشرفين على متابعة القواعد الفدائية للإخوان في الأردن⁷.

لم يقتصر الأمر على تبرع بعض الإخوان الكويتيين بسيارتهم لاند روفر وصهرج لنقل المياه لمعسكر التدريب ابتداءً، فهذا هو "المجاهد الصامت" عبد الله سلطان الكليب، والمعروف بنشاطه الإسلامي في الكويت وسعيه مع إخوانه لجمع التبرعات ونجدة المجاهدين الفلسطينيين منذ سنة 1936، ظل على وفائه والتزامه في تقديم العون المادي للمجاهدين، بل إن ما قدمه من دعم لم يقتصر على إخوانه في القواعد، إذ امتدت النصرة إلى حركة فتح نفسها⁸.

يقول عبد الله العقيل في حديثه عن الداعية عبد الله الكليب:

كنت وإياه في زيارة سماحة الحاج محمد أمين الحسيني أثناء إقامته بלבnan، وكان الحديث كله عن الجهاد وضرورته ودور الشباب المسلم في حمل رايته، بعد أن تخلى عنه الحكام وساروا في ركاب المستسلمين. وكان الأخ الكليب شعلة من الحماس يتحرق لإحياء فريضة الجهاد، وينادي بإصرار وعزم على تبني هذا الخط⁹.

الأمر ذاته ينطبق على الشيخ عبد الله علي المطوع (أبو بدر)، الذي كان يتابع قضايا الأمة ويهتم بها. وكان أكثر اهتماماً بقضية فلسطين، يقدم لها الكثير، ويدعو لنصرتها وتحريرها من أعداء الله، ويعدّها قضيته الأولى، ويؤكد أنها قضية إسلامية. وقد حذر مراراً من الصهيونية العالمية، وطالب بمواجهة العدو الصهيوني بكل الطرق والأساليب.

وعلى الرغم من كثرة انشغالاته، وتعدد مهامه، وتنوع واجباته، إلا أن أبا بدر كان يحرص على لقاء إخوانه مهما كانت الظروف، ويشارك مشاركة فعالة في الرأي والمشورة واتخاذ القرارات. وكان له الدور الكبير في إقامة قواعد الشيوخ، ولم يبخل على المجاهدين بماله، بل إنه كان يعدّ إسهاماته جهاداً في سبيل الله¹⁰.

⁷ سليمان حمد، مقابلة شخصية، 1995/1/24.

⁸ عبد الله العقيل، من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة، ط 3 (القاهرة: دار التوزيع والنشر الإسلامية، 2006)، ص 413 و418.

⁹ المرجع نفسه، ص 419.

¹⁰ المجتمع، 2006/9/9، ص 12.

وهنا ننقل شهادة أحمد أبو طالب، وهو أحد كوادر جماعة الإخوان المسلمين في الأردن وقتها، أن عبد الله المطوع قام بتسليمه مبلغ ألف دينار أردني، فقام بشراء أول عشرة بنادق رشاشة من نوع كلاشنكوف في اليوم نفسه الذي صدر فيه قرار المكتب التنفيذي للإخوان المسلمين في البلاد العربية بالمشاركة في القواعد الفدائية بالأردن¹¹.

وعلى المنوال نفسه كان الداعية المجاهد محمد كمال القزان، وهو من تنظيم الإخوان المسلمين المصريين في الكويت، ومن العاملين بصمت والباذلين بسخاء في وجوه الخير وميادين الجهاد، وعلى أسر الشهداء والمعتقلين من أبناء الحركة الإسلامية، دون أن يعلم بذلك أقرب المقربين إليه؛ وكان يؤمن بأنه لا خلاص لأمة الإسلام إلا بالجهاد، وبدونه تكون لا شيء¹².

تجمعات الإخوان في دول الخليج العربي كان لها أيضاً إسهامات مالية، وإن تفاوتت في هذا الأمر، إلا أنها كانت تؤشر على تجميع الإخوان وحشدهم باتجاه أداء الواجب الشرعي باستمرار الجهاد من أجل فلسطين، مما جعل الإخوان المسلمين في البلاد العربية عامة يعيشون أجواء حيوية بما يقدمونه من عمل مشرف.

يقول إسحق الفرحان في شهادته: "كانت قواعد الشيوخ شمعة مضيئة في فترة الستينيات المظلمة، رغم أن الأوضاع المادية كانت محدودة جداً ومتواضعة، إذ لم يكن هناك دعم مادي كافٍ، مما اضطرنا أن نعتمد على بعض الأثرياء والأغنياء. فكنا نسافر إلى بلدان مختلفة، نجمع التبرعات لتغطية بعض المصاريف المتعلقة بالعمل"¹³.

ولكن القائد الميداني في قواعد الشيوخ ذيب أنيس يؤكد أن وجوهاً إخوانية عربية تكفلت بدعم حركة فتح بمبالغ مالية كبيرة، شريطة إيصال قطع سلاح متميز لقواعد الشيوخ، وقد التزمت قيادة فتح بهذا التفاهم وفق شهادة الشيخ ذيب¹⁴.

¹¹ أحمد أبو طالب، مقابلة شخصية، عمان، 2010/4/8.

¹² عبد الله العقيل، من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة، ص 218-223.

¹³ إسحق الفرحان، مقابلة شخصية، 1997/7/14.

¹⁴ ذيب أنيس، مقابلة شخصية، 2008/10/4.

ومن الذين بذلوا أموالهم في سبيل الله، دعماً للجهاد على أرض فلسطين، لا بدّ من ذكر الحاج سعد الدين الزميلي (أبو بشير) الذي لم يكن، وقتها، يرضى التفريق بين فتح والإخوان¹⁵.

2. الإشراف الإداري:

لم تكن قيادة الإخوان المسلمين سواء على مستوى التنظيم الأردني الذي تولى التنسيق والمتابعة الميدانية لإنشاء القواعد الفدائية أم تنظيمات البلاد العربية مجرد نخب خاصة تصدر القرارات وتعطي التعليمات فقط، بل كانت تحترم كرامة الإنسان المقاتل، فتقف إلى جانبه في المعسكر، ترعى شؤونه وتلبي احتياجاته من سلاح وتموين وذخيرة.

في حديث عبد الله العقيل عن حياة عبد الله عزام فقرات مهمة عن حال الأمة بعد هزيمة يونيو 1967، وتحرك الإخوان لاستنهاض الهمم وتقوية العزائم، وإقامة قواعد الشيوخ. ولكن الفقرة الأهم في حديث العقيل، هو موضوع اللجنة الثلاثية التي شكلها الإخوان المسلمون في البلاد العربية لزيارة القواعد والاطلاع على الأوضاع ميدانياً.

يقول عبد الله العقيل¹⁶:

بعد أحداث النكبة الثانية في فلسطين عام 1967، أصاب الأمة الذهول، فقد كانت مخدوعة بالإعلام الكاذب والدعاوي الفارغة. ومن أجل ألا يستبد اليأس بالأمة، تحرك الإخوان المسلمون في البلاد العربية، يذكرون الأمة بتاريخها، وأمجادها ويهيئون بها إلى إحياء فريضة الجهاد الذي هو ذروة سنام الإسلام، وانطلقوا يعدون العدة لمناجزة اليهود وتدريب الشباب على خوض المعارك ضدهم. فأقاموا معسكراً أطلق عليه اسم معسكر الشيوخ أو قواعد الشيوخ.

ويضيف المستشار العقيل:

انتظم إخوان من الأقطار العربية: مصر، والسودان، وسورية، والأردن، وفلسطين، واليمن، ولبنان في المعسكر. وعهدوا بإدارته لمجموعة من الإخوة الذين جاهدوا بفلسطين عام 1948، وفي قناة السويس عام 1951. وانطلق

¹⁵ سليمان حمد، مقابلة شخصية، 1995/1/24.

¹⁶ عبد الله العقيل، من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة، ص 703-704.

خطباء الإخوان ودعاتهم يجوبون العالم العربي والإسلامي لاستنهاض الهمم، وتقوية العزائم، والنفرة في سبيل الله لإعلاء كلمة الله وحرب اليهود ومناوشتهم لحرمانهم من ثمرة النصر.

ويتابع العقيل:

كان من ضمن من كانوا بالمعسكر الشيخ عبد الله عزام وإخوانه محمد صالح عمر، ومحمد سعيد باعباد، وإبراهيم عاشور، وصلاح حسن، ومحمود حسن، وعبد العزيز علي، وأحمد نوفل، وأحمد أبو طالب، وغيرهم. وقد شكل الإخوان وفداً لزيارة المعسكر والاطمئنان على سير العمل فيه، ومعرفة نواقصه واحتياجاته ولوازمه، فكتت أحد الثلاثة المكلفين بزيارة المعسكر. وكانت تلك المرة الأولى التي ألتقي فيها الأخ عبد الله عزام، فقد كنت قبلها أسمع عنه من الإخوة الفلسطينيين، وكان عبد الله عزام أميراً لقاعدة بيت المقدس.

ولكن عبد الله العقيل يوضح أكثر، ويكشف تفاصيل هيكلية القيادة والإشراف على قواعد الإخوان المسلمين. ومن خلال هذه التفاصيل، تولى الإخوان المسلمون الأردنيون ممثلين بإسحق أحمد الفرحان وأحمد محمد الخطيب، وتنظيم الإخوان المصريين ممثلين بمحمد كمال القزاز وعبد العزيز علي محمد وصلاح حسن خليل، إلى جانب الإخوان الكويتيين ممثلين بعبد الله علي المطوع وعبد الله العقيل، المسؤولية عن تلك القواعد تخطيطاً وتدريباً وتسليحاً وتوجيهاً.

كتب عبد الله العقيل عن ذلك¹⁷: "لقد كان أحمد الخطيب علماً من أعلام الإسلام المعاصرين، ومجاهداً من المجاهدين الأبطال، وداعية من دعاة الإسلام، وقائداً من قادة الإخوان المسلمين في بلاد الشام لا يعرفه حق المعرفة إلا الرعيل الأول، والجيل المؤسس لكبرى الحركات الإسلامية في هذا العصر".

ويضيف أيضاً:

ولست أنسى له مواقفه الكريمة في اللجنة التي تشكلت وخطت للعمل الجهادي عام 1968، وأسهمت في إخراجه إلى حيز الوجود، حيث عمل مع إخوانه أبي عمرو، وأبي أسامة، وأبي أحمد، وأبي طارق، وأبي بدر وغيرهم، وبذلوا الجهود المضنية ليستمر الجهاد ضد اليهود لإزالة اليأس والإحباط الذي كاد

¹⁷ عبد الله العقيل، "الداعية المجاهد أحمد الخطيب"، المجتمع، 1997/7/22، ص 47.

أن يصيب المسلمين نتيجة الهزيمة الكبرى التي تسبب بها الحكام المتسلطون على شعوبهم.

وفي السياق نفسه، فإن الحاج أسعد النابلسي وهو من كوادر الإخوان المسلمين في مدينة العقبة الأردنية يتحدث عن مسؤولية عضو المكتب التنفيذي لجماعة الإخوان المسلمين بالأردن أحمد الخطيب في استلام وتخزين الأسلحة الثقيلة وذخائرها، والتي كان الحاج أسعد يتولى شراءها ونقلها من العقبة إلى عمان.

ويكشف الحاج أسعد أيضاً أن أحد إخوان الأردن ويدعى أبو معن (سليم المومني) كان مشرفاً على استلام السلاح والذخيرة في معسكر الأزرق، وأن محمود حسن خليل (أبو خليل) من قادة إخوان مصر شاركه مع الحاج نصرت البيطار في شراء إحدى صفقات السلاح عن طريق العقبة¹⁸.

أما المسؤول الإعلامي السابق لجماعة الإخوان المسلمين في الأردن زياد أبو غنيمة، فإنه يؤكد من جهته وجود لجنة إخوانية للإشراف على القواعد الفدائية، وإن كان يقدم فقط أسماء المشاركين من التنظيم الأردني، حيث يقول¹⁹:

التحق الدكتور إسحق الفرحان بجماعة الإخوان المسلمين في سن مبكرة وانخرط في نشاطاتها، وخاصة في مجالات الأنشطة الطلابية. وفي أثناء دراسته الجامعية الأولى في قسم الكيمياء بكلية العلوم في الجامعة الأمريكية في بيروت كان له نشاط إخواني بارز. وبعد عودته من دراسته الجامعية، برز نشاطه في الجماعة حتى وصل إلى مركز متقدم في القيادة الإخوانية، فتم اختياره عضواً في المكتب التنفيذي وكان يسمى في حينه بالمكتب العام.

ويتابع القيادي الإخواني السابق:

وعندما شارك الإخوان في الأردن في العمل الفدائي ضمن قواعد خاصة بهم تحت راية حركة فتح، كان الدكتور الفرحان والأستاذ عبد خلف داودية والأستاذ أحمد أبو طالب، وغيرهم ممن لا أذكر أسماءهم، يشرفون على قواعد الإخوان الفدائية، ويقومون بتمثيل الجماعة في الاتصال مع قيادة حركة فتح.

¹⁸ أسعد النابلسي، مقابلة شخصية أجراها د. علي العتوم، عمان، 16/4/1993.

¹⁹ زياد أبو غنيمة، الوزراء الحزبيون على خارطة الحكومات الأردنية (عمان: د.ن، 2005)، ص 269-270.

وعندما بدأت نذر الفتنة تظهر بين الفصائل الفدائية والقوات الحكومية، كلفت قيادة الجماعة الدكتور الفرحان برئاسة قسم مستحدث أو جهاز أطلقت عليه اسم جهاز حماية أمن الدعوة.

3. القيادة الميدانية:

ترك الإخوان أعمالهم وأشغالهم في البلاد العربية مفضلين معسكرات التدريب والتطوع في القواعد الفدائية والانضمام للقتال على مطالب الحياة الآنية المتمثلة بالمال والجوائز وامتلاك المباني والعقارات، وهم يدركون إمكانيات تنظيماتهم المادية البسيطة. ولكنهم كانوا مؤمنين أن الجهاد يسهم في تحرير الإنسان من الحاجات المادية، فتنهذب النفوس وترتقي به. وقد استثمرت القيادة الإخوانية هذه المشاركة، ونظرت إليها بعين ثاقبة، واستطاعت بمصداقيتها أن تكسب هؤلاء المقاتلين، وكان بعضهم من خارج صف الإخوان.

القائد الحقيقي من يقود الناس في الميدان وليس من وراء مكتبه، ينام معهم في الخنادق ولا يستأجر الفنادق لينام هناك. والقائد من تحسس مشاكل مرؤوسيه، ويحاول أن يجد لها حلاً يرضيهم. ولهذا، نزلت القيادة الإخوانية إلى القواعد لتشارك المقاتلين وجبات طعامهم التي لم تكن تزيد عن بضع حبات من زيتون وجبنة وفاصوليا بيضاء وبعض قطع اللحم²⁰.

في البداية، تولى صلاح حسن وشقيقه محمود حسن مسؤولية التدريب في أول معسكر لتدريب الإخوان في منطقة الأزرق. وبعد ذلك، تقرر نقل معسكر التدريب إلى منطقة العالوك، حيث تم عقد أول دورة عسكرية متكاملة بإشراف عبد العزيز علي محمد.

حدث خلاف بين أبو أسامة من جهة وأبو عمرو وشقيقه من جهة أخرى حول منهج التدريب وطريقة العمل، إذ إن الأول كان شديداً، يأخذ الناس بالعزائم، بينما اعتمد أبو عمرو بشكل أساسي على اللياقة البدنية، وجمع بين الانضباط والدقة وبين لين الجانب²¹.

²⁰ عبد العزيز علي، مقابلة شخصية، 1997/7/30.

²¹ يوسف أبو الرب، مقابلة شخصية، إربد، 2010/6/5.

ونتيجة لهذه الازدواجية وما أثير حولها من جدل حول منهجية التدريب، وما أثاره ذلك من اضطراب وخلاف كاد أن ينعكس على أجواء المتدربين، ابتعد صلاح حسن وأخاه محمود عن أجواء الخلاف عائدين إلى الكويت ثم إلى جزيرة جوبا في السودان ليتوليا تدريب الإخوان السودانيين لمواجهة جيش النميري.

يقول عباس السيسي في تقديمه لكتاب ألفه الشهيد صلاح حسن:

إن صلاح حسن وأخاه محمود تركا المعسكرات برغم أنهما هما اللذين قاما بتأسيس وتدريب الشباب، وخرجا من الأردن، وعادا إلى الكويت حيث كانا يعملان هناك من قبل، والسبب هو اضطراب وضع المجموعة، والمشاكل التي أثارها تدخل المتزعمين في شؤون المجموعة وقيادتها. ولكنهما عادا مرة أخرى، ربما يكون من أسباب هذه المشكلات ازدواجية القيادة والمرجعية²².

ووفق ما ذكره عبد الله العقيل، نستطيع أن نؤكد أن الخلاف بين عبد العزيز علي وصلاح حسن كان على طبيعة وشكل المنهج التدريبي للمتطوعين، ولم ينعكس هذا الخلاف مطلقاً على العلاقة الأخوية بينهما بدليل النسب بين الرجلين. إذ تصاهرا مرتين من خلال ابنيهما وابنتيهما²³.

كذلك يقول محمود حسن في شهادته²⁴: ”كانت علاقتنا بالأخ عبد العزيز علي طيبة، وإن حدث بعض الخلافات الفكرية التي جعلته يعتزل نوعاً ما بنفسه. ومن الاختلافات التي حدثت بيننا، أن الأخ أبو أسامة كان يميل إلى الحياة العسكرية، وكان يرى أن تربية الجنود لا بد أن تكون كذلك“.

ويضيف أبو خليل:

كنا أنا وأخي الشهيد صلاح نعارضه في هذا الرأي، حيث إننا لسنا في جيش، ولكن نحن معسكر متطوعين نربي الجنود بالموقف. وبالرغم من هذا الخلاف، لم يكن بيننا شقاق، فكان الأخ أبو أسامة من القادة المحترمين، وكان يحترم أخي صلاح، فكانا يتحدثان ويتحاوران. وقد ارتبط معسكر الإخوان بعلاقات

²² إبراهيم غرايبة، جماعة الإخوان المسلمين في الأردن: 1946-1996، ص 78.

²³ عبد الله العقيل، مقابلة شخصية، عمان، 2007/3/28.

²⁴ محمود حسن، مقابلة شخصية، القاهرة، 2009/1/5.

طيبة مع كل المعسكرات والجماعات الموجودة بجانبهم، فكانوا يقدمون لهم المساعدات ووصلت هذه المساعدات إلى الأهالي الذين يعيشون في القرى القريبة من معسكرنا، مما جعل الناس تشعر أننا لسنا معسكر جهادي للقتال فقط، بل ودعوي أيضاً. وهذا كان أحد أهدافنا، أننا لسنا مقاتلين فقط، بل دعاة أيضاً. وهذا ظهر بعد ذلك، حيث قدمنا المساعدات الكثيرة والخدمات للأهالي، وصعد الكثير منا المنابر لنعظ في المساجد القريبة.

وحمل أصغر المقاتلين من إخوان الأردن الرأي نفسه، إذ يقول علان بلال في شهادته²⁵:

استلم الأخ أبو أسامة كل شيء في المعسكر، فهو مدرب الرياضة، ومدرب العسكرية، ومدرب التكتيك، وهو الذي ينقل الماء من العالوك ويحضرها إلى المعسكر. وكانت طبيعته الشدة في كل شيء، بل إن الإخوة ما كانوا راضين عن طريقة قيادته، مع أنه رجل فاضل، ولكنه كان شديداً لأبعد الحدود، بل إنه كان صعباً حتى في الأكل وعنده تقنين في بعض حاجات التدريب أيضاً، حتى إنه عندما يشعر بالتعب، يقوم بإيقاف التدريب ويتوقف كل شيء في المعسكر.

ويضيف علان بلال: ”كنا نتدرب بشكل عنيف، أذكر آخر مسيرة لنا كانت من جرش إلى الأزرق، ومن ثم إلى الحدود السورية الأردنية في منطقة العمري“.

استقرت القيادة الميدانية لقواعد الشيوخ بعد عودة صلاح حسن إلى ميدان العمل الفدائي في الأردن من جديد، حيث كان التنسيق بين قيادتي الإخوان وحركة فتح يتم بمعرفة المكتب التنفيذي، بينما نهض صلاح حسن بمسؤولية الأمور الفنية والعسكرية والتنسيق الميداني.

وتولى الشيخ ذيب أنيس مسؤولية العلاقات مع الأهالي والجيش الأردني حتى نهاية سنة 1969، ثم مسؤول ميليشيا حركة فتح في منطقة إربد، ليستلم القيادة الميدانية أحمد نوفل حتى انتهاء العمل الفدائي للإخوان في أيلول/سبتمبر 1970، وكان يحيى حسين من تنظيم الإخوان المصريين في الخارج ضابط الارتباط بين أحمد نوفل ومحمد كمال القزان²⁶.

²⁵ علان بلال، مقابلة شخصية، عمان، 2010/4/28.

²⁶ يحيى حسين، مقابلة شخصية، إسطنبول، 2009/5/24.

وفيما يتعلق بالقيادة الميدانية للقواعد، فقد تولاهما أحمد أبو سعد في قاعدة الرفيد، ومحمد طه دريس في قاعدة بدر الكبرى، وعبد الله عزام في قاعدة بيت المقدس.

يقول ذيب أنيس في شهادته:

كنت المسؤول الظاهر لقواعد الإخوان أمام المسؤولين الأردنيين بصفتي أحمل الجنسية الأردنية، وكان الشهيد صلاح حسن رحمه الله هو المسؤول العسكري الأكبر من الناحية الفنية والعسكرية، وهو أخ مصري قاتل الإنجليز في قناة السويس سنة 1951. وكانت القيادة العليا لمعسكرات الحركة الإسلامية، أو ما يسمى بقواعد الشيوخ يختارها المكتب التنفيذي للجماعة، إذ كان المكتب يفرز ثلاثة إخوة همزة وصل بيننا كمنفذين للعمل وبين القيادة العليا للإخوان.²⁷

حدث تغيير في الإشراف العام على قواعد الشيوخ بعد استشهاد صلاح حسن، ومغادرة عبد العزيز علي الأردن، حيث أوكل المكتب التنفيذي للإخوان المسلمين في الأردن المسؤولية للدكتور عصام الشربيني، وهو طبيب من إخوان مصر شارك في المقاومة السرية ضدّ البريطانيين في قناة السويس، وكان له إسهامات ميدانية سابقة مع المؤتمر الإسلامي العام لبيت المقدس. وبعد أحداث أيلول/ سبتمبر 1970، أشرف الشربيني على جميع الإخوان في القواعد قبل أن يتم تفريغها وتسريح عناصرها.²⁸

ثانياً: التجنيد والتدريب:

كانت الخطوة التالية بعد الاتفاق بين حركة فتح وجماعة الإخوان المسلمين هي حشد الطاقة البشرية للحركة الإسلامية في البلاد العربية، وتنظيم المتطوعين وتدريبهم، وتوجيه المتفرغين منهم نحو القواعد الفدائية الخاصة بقتال العدو الصهيوني.

وفي سبيل تحقيق ذلك، تحرك الإخوان على أكثر من صعيد سواء داخل الأردن أم خارجه. إذ لم يكن توجيه المكتب التنفيذي للإخوان المسلمين في الأردن، عناصر وكوادر الإخوان للتطوع والانتظام في معسكرات التدريب مقتصرًا على فئة الشباب وخريجي

²⁷ ذيب أنيس، مقابلة شخصية، 2008/10/4.

²⁸ إسحق الفرحان، مقابلة شخصية، 1997/7/14.

الثانوية العامة والجامعات فحسب، فهي هو نائب شعبة الزرقاء سليم المومني، والذي كان في العقد الخامس من عمره يسابق الشباب في معسكر التدريب إلى أن توفاه الله سنة 1969 وهو مرابط في سبيله.²⁹

ويذكر يوسف أبو الرب (أبو الصديق)، وهو من أوائل الإخوان الذين تلقوا التدريب العسكري في معسكر العالوك، وشارك بعدة عمليات عسكرية بعد تخرجه من الدورة التدريبية في 1969/8/10، كان من أبرزها عملية مشتركة مع مقاتلي فتح وجيش التحرير الفلسطيني حملت اسم "الحزام الأخضر"، قبل أن يلتحق بدورة عسكرية متقدمة في الكلية الحربية السودانية، أن أول مسؤولية تمّ تكليف ذيب أنيس بها هي تجنيد المتطوعين. فكان ذيب أنيس يتنقل بين شعب الإخوان المسلمين في الأردن، يحرض الإخوان في الشعب على الانخراط في العمل الجهادي.³⁰

أما في الدول العربية، فقد تشكلت وفود إخوانية عديدة، ضمّ أحدها ثلاثة من الإخوان (يمني، وتركي، وإندونيسيا)، بمهمة الطواف بالدول العربية والعالم الإسلامي، يحضون على الجهاد بالنفس والمال، ويجلبون المتطوعين لمعسكر الإخوان المسلمين. ولما مرّ هذا الوفد بالمعسكر وأطلع على الحياة فيه، قرر النقيب محمد سعيد باعباد أن يبقى، فهو صاحب خبرة عسكرية، والعمل الميداني بحاجة إليه. واستمر الوفد بعد ذلك في المهمة نفسها بعد أن انضم إليه آخرون.³¹

وبرز كذلك دور رئيس المجلس الأعلى للدعوة الإسلامية في إندونيسيا محمد ناصر، فقام برحلات مع بعض الدعاة من العرب لاستنهاض الهمم للدفاع عن فلسطين ومقاومة المسؤولين من قادة الدول في أعقاب هزيمة يونيو.³²

كانت أكبر مجموعة شاركت في قواعد الشيوخ من خارج الأردن هي من الإخوان السوريين. والحقيقة أن الشهيد مروان حديد هو من لعب دوراً رئيسياً في استقدام العدد الأكبر من الشباب بغرض التدريب والمشاركة في العمليات القتالية.

²⁹ محمد أبو فارس، مرجع سابق، ص 386.

³⁰ يوسف أبو الرب، مقابلة شخصية، 2010/6/5.

³¹ محمد أبو فارس، مرجع سابق، ص 380.

³² عبد الله العقيل، من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة، ص 43.

كان مروان حديد عنواناً في الإقدام والجرأة وقول الحق، وهو إلى جانب الشيخ محمد الحامد الوحيدين القادرين على تعبئة شباب حماة ورجالها وأبناء المحافظات الأخرى في ظل رفض قيادة الإخوان داخل سورية المشاركة في قواعد الشيوخ لاعتبارات أمنية لديها. فكانت المجموعات التي يرسلها عبر رشيد العيسى في دمشق تصل بشكل منتظم إلى معسكرات التدريب في الأردن.

حينما وقعت حرب يونيو 1967، كان مروان حديد إلى جانب الشيخ الجليل عبد الفتاح أبو غدة ومعهما علماء من دمشق وحمص ودير الزور واللاذقية خلف القضبان في سجن تدمر. ومع ذلك، عاش مروان مع الحركة الإسلامية في صميم جهادها، ورافقها في طريقها الطويل المحفوف بالمكاره والمحن، ونذر نفسه وحياته كلها في سبيل الله، داعياً إخوانه إلى الجهاد بالنفس والمال، فأعد مجموعة من الشباب المؤمن، بل هم خيرة شباب سورية، اشتركوا مع إخوانهم في كثير من العمليات الناجحة³³.

لم تستجب قيادة الإخوان في سورية لطلب مراقبها العام عصام العطار إرسال الشباب للتدريب والقتال في القواعد الفدائية في الأردن، إذ كانت القيادة منقسمة على نفسها، ويذكر عدنان سعد الدين أن الخلاف داخل مجلس الشورى حول شخصية عصام العطار أدى إلى انقسام التنظيم بين فريقين: الأول ضمّ مركز حلب واللاذقية وبعض الإخوان في المراكز الأخرى وهو معارض للمراقب العام.

وأما الفريق الثاني، فقد ضمّ مركز دمشق وحمص وبعض الإخوان في المراكز الأخرى، وهم مؤيدون لعصام العطار. وظهرت كتلة ثالثة، ضمت مراكز دير الزور وإدلب وحماة أعلنت حيادها. ولذلك، حاول عصام العطار تجميع عدد من الإخوان الفارين خارج سورية وإرسالهم إلى المعسكر، مع أن عدد من استجاب من هؤلاء كان قليلاً بالمقارنة مع الوافدين للقواعد من داخل سورية³⁴.

ولم يقتصر الأمر على زيارة مروان حديد وغيره من قيادات الإخوان المسلمين السوريين لمعسكر التدريب وقواعد الفدائيين بعد ذلك، إذ برز عبد الستار الزعيم رامياً

³³ عدنان سعد الدين، الإخوان المسلمون في سوريا: مذكرات وذكريات (عمّان: دار عمار للنشر والتوزيع، 2006)، مج 3، ص 126؛ وحسني أدهم جزار، "مروان حديد"، صحيفة الرباط، الأردن، 1992/2/18، ص 13.

³⁴ عدنان سعد الدين، مرجع سابق، ص 257؛ وعبد الله أبو عزة، مرجع سابق، ص 170.

على قذائف آر بي جي RPG، وكذلك الحال بالنسبة لمهارة حسني عابو بالرماية وحرب العصابات³⁵.

وكان رشيد العيسى، الطالب في كلية الطب بجامعة دمشق يقوم بتجهيز الشباب للتدريب انطلاقاً من الشقة التي كان يسكنها في حيّ البرامكة، ويزودهم بالبطاقات الثبوتية اللازمة كفدائيين من حركة فتح³⁶.

وبموازاة مروان حديد في سورية، كان الداعية الشهيد محمد صالح عمر في السودان، هو من رموز الحركة الإسلامية هناك، بل إنه انتخب لقيادتها فترة من الزمن، وكان وزيراً في حكومة الثورة سنة 1964، وأستاذاً للشريعة الإسلامية في جامعة الخرطوم. كان الشهيد صياغة جديدة غير ما عرف الناس من العظماء. فقد كان المسلم الصادق مع نفسه وإخوانه، والأخ العامل الذي لم يصرفه عن ميادين العمل الإسلامي. وكان المثقف الذي حافظ على أصالته الإسلامية. وكان المتواضع الذي لم تستحوذ عليه المناصب الكبيرة التي وُلّوها بل جعله ألصق بإخوانه، كبيرهم وصغيرهم، يحنو عليهم ويعالج قضاياهم بنفسية الأخ الشفوق الرفيق. وكان المتفاني المخلص الذي لم تستطع أن تشده إلى الدنيا وشيعة، فقد ترك أهله وولده وبلده في أيامه الأخيرة طائعاً مختاراً، مرة إلى فلسطين حيث عاش في الأغوار، وأخرى إلى أدغال السودان وفيافيهِ حيث قضى شهيداً.

بعد هزيمة حزيران/يونيو 1967، غادر محمد صالح عمر بلده إلى المشرق العربي متنقلاً، محفزاً الهمم، جامعاً الطاقات لإبراز كيان جهادي إسلامي، تنصب فيه قوى المسلمين بحيث توجه هذه القوى لتخليص فلسطين من الغاصبين. وقد بذل في هذا السبيل جهده ووهبه كل طاقاته، فاستقال من جامعة الخرطوم واستقر في أرض المعركة على تخوم فلسطين مجاهداً في سبيل الله. وانغمس في المعركة متدرباً ومربياً ثم فدائياً مجاهداً يمارس العمليات في الأرض المحتلة. استمر على هذا مدة، إلى أن كان انقلاب السودان في 1969... فغادر لمواجهة الانقلابيين³⁷.

³⁵ علي صدر الدين البيانوني، "الإخوان المسلمون في سورية والقضية الفلسطينية: الحلقة الثانية"، المجتمع، 1999/9/13، ص 46.

³⁶ رشيد العيسى، مقابلة شخصية، 2008/10/7.

³⁷ توفيق يوسف الواعي، موسوعة شهداء الحركة الإسلامية في العصر الحديث (الكويت: دار البحوث العلمية، 2004)، ص 570 و572.

وإلى جانب محمد صالح عمر، حضر من السودان تاجر كبير في السن اسمه أبو القاسم تجاوز السبعين في العمر، عدّه المجاهدون بمثابة الوالد لهم جميعاً، بل إنه أصر أن يخدمهم بعمله في مطبخ المعسكر. ولولا الانقلاب الذي قاده جعفر النميري، لوفد المئات من إخوان السودان ومناصريهم وقتها³⁸.

كما شرع صلاح حسن مع إخوانه عبد العزيز علي، ومحمود حسن، ومحمد كمال القزاز وغيرهم في الدراسات المعمقة والتدريبات الكثيفة، والدروس الإيمانية، والتحرك على مستوى العالم الإسلامي، لاستقطاب الشباب الراغبين في الجهاد لإعلاء كلمة الله، والتصدي للعدو الصهيوني. وقد أنثرت هذه الجهود المباركة نواة طيبة من شباب العالم الإسلامي، هجرت حياة الدعة وسارعت إلى ساحة الجهاد وميدان الإعداد، وتوجهت إلى أرض الرباط لمناجزة ومحاربة أعداء الإسلام³⁹.

ظلّ صلاح حسن يصر على استمرارية الجهاد ضدّ الصهاينة، الداء الخطير الذي اجتاح العالم، والعدو اللدود للإسلام وأهله، فكان الدعامة الأساسية لقيام قواعد الشيوخ في الأردن، قدم كل إمكاناته ووسائل التدريب على فنون القتال وأساليب الهجوم والدفاع، وشارك في الإشراف العام على شؤونها مع ثلة من إخوانه القيايين من مختلف الأقطار⁴⁰.

كانت المرحلة الأولى من التدريب برعاية حركة فتح، وفي أحد معسكراتها في أحرش جرش. ولكن هذه التجربة لم تعمر طويلاً، نتيجة عدم انسجام المتدربين من الإخوان مع الجو العام الذي كان سائداً داخل المعسكر، وبين أوساط المتطوعين من غير الإخوان. ويذكر أحمد نوفل أن عدد الإخوان الذين تلقوا التدريب في هذا المعسكر، ثم انتقلوا بعد ذلك إلى قواعد الشيوخ نحو عشرة، عُرف منهم إلى جانب أحمد نوفل، داود كوجك، وصلاح الدين أحمد عبد الله عودة، وعلان بلال⁴¹.

³⁸ علان بلال، مقابلة شخصية، 2010/4/28.

³⁹ عبد الله العقيل، من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة، ص 563.

⁴⁰ سعود أبو محفوظ وفاروق بدران، مرجع سابق، ص 27.

⁴¹ أحمد نوفل، مقابلة شخصية، عمان، 2007/3/26؛ وأحمد أبو سعد، مقابلة شخصية، 2010/1/9؛ وعلان بلال، مقابلة شخصية، 2010/4/28.

على أثر ذلك، تمّ الاتفاق بين الإخوان وحركة فتح على فرز المتطوعين من الإخوان المسلمين في معسكرات خاصة بهم للتدريب العسكري، لتبدأ بعد ذلك المرحلة الثانية والتي تضمنت إنشاء معسكر التدريب في منطقة الأزرق. وجرى بعد ذلك، نقل المعسكر إلى منطقة العالوك، حيث جرى تدريب أربعين مقاتلاً افتتحوا أول قاعدة جهادية ثابتة للإخوان المسلمين في منطقة إربد.⁴²

ولكن الإخوان المسلمين لم يكتفوا بهذا النمط من التدريب، ذلك أن بعضهم انتظم في دورات متخصصة كالشهادي محمود البرقاوي (أبو جندل) الذي شارك في دورة أسلحة مضادة للطائرات في معسكر في سورية مع إبراهيم العواودة، حيث ذكر الأخير أنه تلقى أيضاً دورة صواريخ في معسكر لحركة فتح.⁴³

وهناك أيضاً يوسف أبو الرّب الذي غادر القواعد إلى السودان ملتحقاً بالكلية العسكرية السودانية، حيث تخرج منها برتبة ملازم أول.⁴⁴

1. معسكر جرش:

يقع معسكر التدريب هذا في منطقة مليئة بالشجر، وكان أقرب إلى مزرعة كبيرة مهجورة يتخللها بعض الأطلال، غير أنه ثمة منشآت مخبأة وراء الأشجار كأبراج المراقبة ومراكز إطلاق النار. وغرس في وسط المعسكر العلم الفلسطيني مع عبارات: النصر أو الشهادة، فتح، تحيا فلسطين حرة.

شارك نحو عشرة من كوادر الإخوان المسلمين في هذا المعسكر، وتلقوا دورة تدريبية دقيقة على حرب العصابات بإشراف الضابط المسؤول، وهو من أكفأ عناصر حركة فتح، تلقى تدريبه في أكاديمية شرشال العسكرية في الجزائر.

كانت الدورة تتضمن تعلم الانضباط، وتلقي الأوامر، وكيفية استعمال مدفع الهاون Mortar، والتمرن على القتال بالأسلحة الأبيض، والقفز فوق النار، وتسليق الصخور، والنزول من السطوح، وقطع الحواجز المكهربة كتلك التي تشبه الحواجز المحيطة بالمستعمرات.

⁴² محسن محمد صالح، مرجع سابق، ص 195.

⁴³ إبراهيم العواودة، مقابلة شخصية، المرق، 20/4/2009.

⁴⁴ يوسف أبو الرّب، مقابلة شخصية، 5/6/2010.

أما التثقيف السياسي في المعسكر، فإن الكتب المسموح بها، هي تلك المجازة من المفوض السياسي لقوات العاصفة، والتي تمّ تكديس عشرات النسخ منها في إحدى غرف المعسكر، مثل: مبادئ الفدائي، وتطوير وحدات الجماهير، والمعاونون في الأرض، وأفكار ماو، وخطاب هو تشي منه Ho Chi Minh، وإعلان هافانا الثاني Second Declaration of Havana، وآخر رسالة لتشي جيفارا، وطريق بئر السبع للمؤلف إيثيل مانين Ethel Mannin⁴⁵.

كان أحمد نوفل أحد الإخوان المسلمين الذين تلقوا تدريباتهم في معسكر حركة فتح في جرش، وكان للشيخ تجربته وذكرياته الخاصة في ذلك المعسكر. وحول هذه التجربة، يقول:

طلبنا من قيادة الإخوان أن نلتحق بتدريب أكثر تقدماً، فألحقونا بدورة في أحد معسكرات فتح. ففي ذلك الوقت، بدأت فتح وباقي المنظمات تأخذ وضعها بين الجماهير وتستقطب الكثير من الناس، خصوصاً وأن فتح لم تطرح فكراً إلحادياً ظاهراً، يعني كانت بين وبين؛ ولذلك الجمهور انخرط فيها. ولكن أقول الجماعة هي التي أرسلتنا إلى المعسكر بالتنسيق مع فتح وهو معسكر من أعنف معسكرات فتح، وكنا مجموعة من عشرة أشخاص من الإخوان ذهبنا إلى ذاك المعسكر وقضينا فيه فترة تدريب شديدة جداً وعنيفة جداً؛ يعني في مدة شهر لم يشعل عود كبريت في المعسكر طيلة الليل، وكنا نتدرب عشرين ساعة بدون مبالغة. وهو كما قلت، أشد معسكر لفتح يأتيه الناس من لبنان ومن سورية ومن الأردن ومن مصر، وكنا على الأقل من ست أو سبع دول في ذاك المعسكر. ولم يرق لنا بطبيعة الحال العيش وسط هؤلاء الناس لأنه لا التزام ولا انتماء. وكانت تجربة هائلة بالنسبة لنا، وهي العيش في هذا الوسط القاسي، والعيش في وسط هذه النفسيات الغريبة، وهذه التجمعات التي لم نعتد على العيش فيها ولكنها تجربة غنية بالنسبة لنا⁴⁶.

⁴⁵ أنيا فرنكوس، الفلسطينيين (بيروت: دار النهار للنشر، 1969)، ص 170.

⁴⁶ أحمد نوفل، مقابلة شخصية، 2002/3/9.

2. معسكر الأزرق:

شكل معسكر الأزرق مرحلة وسيطة، بل صورة أكثر تطوراً عن المخيمات التربوية الإخوانية التي كانت تجمع الإخوان من شتى الشعب والمناطق، ومنها: مخيم القدس (1953)، ومخيم وادي شعيب (شتاء 1953)، ومخيم اللاذقية (1953)، ومخيم دبين (صيف 1954)، ومخيم وادي القلط قرب أريحا (1954)، ومخيم وادي القف قرب الخليل (1954)، ومخيم بني نعيم قرب الخليل (1954)، ومخيم الديرة قرب السلط (1957)، ومخيم الكفرين (1957)، ومخيم دبين (1957)، وأخيراً مخيم السخنة (1957) الذي كان أكبر تلك المخيمات، إذ حضره ما لا يقل عن ثلاثئة من شباب الإخوان بقيادة عبد خلف داودية.

كان البرنامج اليومي في تلك المخيمات في مجمله قائماً على البرامج الإيمانية والروحانية والثقافية، إلى جانب التمارين الرياضية، والسير الطويل، واستكشاف المنطقة، والألعاب الرياضية والذهنية، وترتيب الخيام، والتفتيش على النظام والنظافة⁴⁷.

المعلومات المتوفرة عن هذا المعسكر التدريبي، الذي أشرف عليه صلاح حسن وشقيقه محمود حسن بالإضافة إلى ضابط من حركة فتح، شحيحة نتيجة عاملين: الأول أن المعسكر لم يعمر طويلاً، والثاني أنه لم يأخذ صورة المعسكر المتكامل، وإنما كان موقعاً مكشوفاً تستطيع أي طائرة حربية أن تصل إليه وتقصفه.

لم يكن هناك طريق معبد يقود للمعسكر، بل كان بعيداً عن طرق المواصلات. وكانت المنطقة تفتقر للخدمات الصحية، ناهيك عن ضرورة وجود مستشفى قريب لمعالجة الحالات الطارئة في المعسكر أو حوادث التدريب، وإصابات القصف الجوي من طائرات العدو. واقتصرت الإمكانيات اللوجيستية على سيارة لاندروفر من النوع الطويل، كانت تضطر إلى السير في بركة ماء مسافة طويلة⁴⁸.

كانت التربية واللياقة البدنية من جري لمسافات طويلة، والقفز فوق قطع ومكعبات من الإسمنت تمّ بناءها لهذا الغرض هي الأساس في برنامج صلاح حسن في

⁴⁷ سعود أبو محفوظ وفاروق بدران، مرجع سابق، ص 18-19.

⁴⁸ عبد العزيز علي، مقابلة شخصية، 1997/7/30.

معسكر الأزرق، بينما شكل التدريب العسكري جزءاً أقل من برنامج التدريب، واقتصرت على بعض الأسلحة الخفيفة.

ولم يكن هذا الأمر يعود لشخصية الشهيد صلاح حسن، أو لكونه معلماً للتربية البدنية بالأساس، ذلك أن الشهيد وشقيقه شاركا في العمليات الفدائية ضدّ الإنجليز في قناة السويس، ودرّبا شباب الإخوان في الجامعات على السلاح. ولكننا نعتقد أن الشهيد أراد أن يعيش شباب الإخوان من شتى الدول العربية في مناخ إسلامي نظيف، وأن يتم بينهم التعارف، وأن تعيش بينهم إخوة الإسلام، وأن تكتمل تربية الفرد بتربية جماعية على السمع والطاعة، والبذل والتقشف. وكان الهدف من التركيز على اللياقة البدنية، بناء الجسم الرياضي القادر على تحمل المشاق والصعاب.

يقول عبد الله عزام في مذكراته عن تلك الفترة:

ذهبنا لمعسكر التدريب، ومكث التدريب أربعة أشهر، طبعاً الإنسان من الله عز وجل عليه بنعمة تذوق الجهاد، أربعة أشهر أنا ما أذكر في الأربعة أشهر أنني شبت أبدأً إلا مرة واحدة، طيلة الأربعة أشهر نصف رغيف في الصباح، وآخر في الظهر، وثالث في المغرب، من النوع الذي تنفخ عليه يطير، وتقف أمام تنكة الزيتون يعدّ لك عشر حبات زيتون وتمشي بدون شاي، نعم فعلاً كنا نعاني كثيراً من الجوع، ولكنها كانت متعة، بل من أمتع أيام الحياة، كان الواحد منا يحس أنه ملك وأنه فوق الناس أجمعين، وأنه قد تحرر من كل شيء، وليس لأحد سلطة عليه. كما أن شعوره برضا رب العالمين عليه، أضفى على الجو سكوناً وطمأنينة ومحبة لا نظير لها، وبأنه لا يوجد في الساحة غيرنا، لا يوجد أحد ينكد عليك، يقول لك إناك كذا واتجاهك كذا وعقيدتك كذا وبدعك كذا، الحمد لله لا يوجد غيرنا من المسلمين فكنا نشعر بالراحة⁴⁹.

أما أحمد أبو سعد، فإنه يكتب في مذكراته عن المعسكر ما يلي⁵⁰: ”توجه شباب من الإخوان في عطلة الشتاء إلى معسكر الأزرق عام 1969، وأرسلت منظمة فتح مدرباً برتبة ضابط هو عبد اللطيف شديد المعروف باسم أبو وديع. وكان هناك بعض الأسلحة الخفيفة التي أشرف على تدريب الإخوان عليها، وأشهد أنه كان من ذوي الأخلاق العالية“.

⁴⁹ عبد الله عزام، حتى لا تضيع فلسطين إلى الأبد، ص 71.

⁵⁰ أحمد أبو سعد، مقابلة شخصية، 2010/1/9.

ويضيف القيادي في قواعد الشيوخ:

وممن أذكر أنهم كانوا من المشرفين على ذلك المعسكر الأخ محمود حسن، وهو من إخوان مصر الذين كانوا يعملون في الكويت. ومن الأردن كان هناك الأخ أبو معن، المشرف على استلام السلاح والذخيرة في المعسكر. وكان في ذلك المعسكر أيضاً الأخ الشيخ مصطفى العالم جاء من المملكة العربية السعودية، وكان من إخوان مصر الذين اعتقلوا وعذبوا في مصر، وقضى فترة من السجن مع الأستاذ الشهيد سيد قطب في الزنزانة نفسها، وأعطى وجوده معنا دفعةً معنوياً هائلاً للشباب.

ويختم أبو سعد: ”لقد تهيأ الإخوة في هذا المعسكر، وعلى الرغم من الفترة الزمنية المحدودة التي قضوها [لممارسة] العمل الجهادي، وإن كانت التطبيقات العملية محدودة للغاية نظراً لورود أخبار كان مصدرها الجيش في المنطقة بأن هناك احتمالاً لحصول غارات جوية إسرائيلية على المعسكر، ومن هنا لم يكن هناك استقرار على أرض المعسكر“.

3. معسكر العالوك:

استلم عبد العزيز علي محمد (أبو أسامة) مسؤولية الإشراف العام على الإخوان بعد مغادرة صلاح حسن وشقيقه محمود عائدين إلى الكويت، وانتقالهما بعد ذلك لتدريب الإخوان السودانيين الذين كانوا يتجمعون في جزيرة أبا، لمواجهة الحكم العسكري الذي استولى على السلطة في الخرطوم.

ولأسباب أمنية، قرر أبو أسامة نقل معسكر التدريب من الأزرق إلى منطقة العالوك، حيث اختار منطقة بين ثلاث جبال رأى أنها تشكل عائقاً صعباً أمام طياري العدو الذين يريدون المناورة أو القصف الجوي. وكان المعسكر يتكون من مهاجع للشباب عبارة عن خيام مخروطية الشكل، لونها كاكي باستثناء خيمة المطبخ التي كانت بيضاء⁵¹.

أدار الإخوان أول دورة تدريب عسكرية في معسكر العالوك، وكان هناك تدرج في البرنامج، بدءاً بالاستيقاظ قبل الفجر فالوضوء والتهجد ثم صلاة الفجر وقراءة

⁵¹ عبد العزيز علي، مقابلة شخصية، 1997/7/30.

المأثورات بشكل جماعي، مروراً بالطابور الرياضي والجري لمدة عشر دقائق، وانتهاء باستخدام السلاح وإطلاق النار وإجراء المناورات العملية.

وفي نهاية الدورة، جرى عمل اختبارات عملية للمقاتلين على البرنامج الذي تلقوه، تضمنت تلك الاختبارات السير الطويل لمدة ساعة متواصلة بعيداً عن المعسكر إلى جانب التمرين العملي على الأسلحة⁵².

يصف يوسف أبو الرُّب البرنامج التدريبي الذي تلقاه في معسكر العالوك بقوله:

كان برنامج العمل في المعسكرين الأزرق والعالوك يقوم على حفر الخنادق والمغارات، وبناء الخيام، والتدريب على الزحف، وإطلاق النار، والقيام بالمسيرات الطويلة التي كانت بحدود 13 كم، وتحمل شظف الحياة في الطعام والنام. فالزاد في أكثر الأحيان كان قليلاً وخشناً، لا يتعدى بضع حبات زيتون مع كسرة خبز يابسة وكأس شاي. وليس هذا فحسب، إذ قد يؤمر الفرد وهو في منتصف الأكل أن يتركه، ويقوم بالجري، أو أن يقلبه ويمضي⁵³.

ولكن المدرب أبو أسامة، الذي ذكرنا بأن له أسلوباً خاصاً في التدريب العسكري، والأوضاع التي يجب أن تكون عليها حياة المتدربين، يُقرُّ بأن أول فصيل تلقى التدريب في معسكر العالوك كان على درجة عالية من الانضباط، كما أن المتدربين كانوا يعرفون معنى وتبعات حمل السلاح، ولماذا يتم تدريبهم على تحمل الجوع والعطش. وفيما يقر أبو أسامة أيضاً بأن الطعام المكون من زيتون وجبنة ولحم كان متوفرًا بحيث كان باستطاعة أي متدرب أن يأخذ ما يريد، إلا أنه يقر أيضاً بأنهم كانوا يقننون في محتويات الوجبة الغذائية⁵⁴.

أما أحمد أبو سعد، الذي تولى قيادة قاعدة الرفيد، فإنه يصف تلك التدريبات بقوله:

توجه الإخوان من الأردن ومن السودان، وهما الدولتان اللتان كان يُسمح فيهما بتواجد علني للتنظيم الإخواني إلى قاعدة التدريب الأولى في العالوك، وكان يشرف على هذا المعسكر الأخ عبد العزيز علي. وبالفعل، تلقوا تدريبات شاقة،

⁵² المرجع نفسه.

⁵³ يوسف أبو الرُّب، مقابلة شخصية، 2010/6/5.

⁵⁴ عبد العزيز علي، مقابلة شخصية، 1997/7/30.

وأَمْضُوا أياماً قاسية ملؤها الصبر، وتحمل كل أنواع التقشف وشطف العيش، بحيث كانت ساعات التدريب تتجاوز حاجز الـ 18 ساعة كل يوم⁵⁵.

وقد ضمت المجموعة الأولى التي تلقت التدريب في العالوك أربعين متطوعاً، منهم: عبد الله عزام، وذيب أنيس، ومحمود البرقاوي، ومحمد القضاة (أبو الشهيد)، ويوسف أبو هلالة، ورضوان كريشان، ويوسف أبو الرب، وأحمد أبو سعد، ومحمد طه دريس، وإبراهيم المشوخي، وعثمان نصيف، وحسن البطاينة، ومحمد عويضة (أبو إسماعيل)، وعرفات التكروري، وعثمان نهنوش، وعبد الله ملوح من مأدبا⁵⁶.

وكذلك محمد صالح عمر، وزين العابدين الركابي، وعبد الرحيم ولد الباهي، من أصل 15 من إخوان السودان جاء 14 منهم جواً، بينما جاء عبد الرحيم ولد الباهي بحراً إلى العقبة، وقام مشهور حسن حيمور الذي كان وقتها مجنداً في الجيش الأردني بنقله إلى عمان⁵⁷.

ومن سورية: عبد الستار الزعيم، ورشيد العيسى، وفريد قداح، وغالب كيلاي، وعبد الرحمن نوح، وغالب (استشهد داخل سجون حافظ الأسد)، وعمر فارس الجواد (استشهد في حماة). ومن الضنية بطرابلس محمد شندب، وكان أيضاً محمد أمان من إثيوبيا.

استمرت فترة تدريب تلك المجموعة أكثر من ثلاثة أشهر، حتى أصاب بعضهم الملل لطول فترة الانتظار، قبل أن تلتحق بقاعدة غزة، بل تصاعد الاحتجاج من المتدربين حين انضمت المجموعة الثانية من متطوعي الإخوان إلى معسكر التدريب في بداية حزيران/يونيو 1969، وهي المجموعة التي افتتحت قاعدة بيت المقدس. وتوالت الدورات التدريبية في هذا المعسكر، حيث كان المتدربون صنفان، الأول يتدرب ثم ينتقل إلى القواعد ومناطق القتال، والصنف الثاني كان يشارك في الدورات التدريبية على أنواع السلاح وفنون القتال ثم يعود إلى منطقته وبلده بحيث يكون جاهزاً عند الطلب⁵⁸.

⁵⁵ أحمد أبو سعد، مقابلة شخصية، 2010/1/9.

⁵⁶ ذيب أنيس، مقابلة شخصية، 2008/10/4.

⁵⁷ أحمد أبو طالب، مقابلة شخصية، 2010/4/7.

⁵⁸ ذيب أنيس، مقابلة شخصية، 2008/10/4.

وحين تبين للإخوة المسؤولين مقدرة إبراهيم عاشور العسكرية وكفاءته القيادية، عهدوا إليه بالمهام الكبيرة، وأسندوا إليه تدريب الإخوان على فنون القتال، وتعليمهم أنواع السلاح وطرق استعماله.

تولى إبراهيم عاشور، وهو من الإخوان الفلسطينيين الذين كانوا يقيمون في العراق، مسؤولية تدريب المجموعة الثانية من المتطوعين. وكان عاشور قد خدم في الجيش العراقي بعد تخرجه من الكلية العسكرية الخاصة بالضباط الاحتياط، وكان منهجه في التدريب يختلف بعض الشيء عن سلفه، إذ ركز على تنويع التمارين والبرامج، وخفف على المتدربين بالقياس إلى التقشف الذي لازم حياة المجموعة الأولى داخل المعسكر⁵⁹.

ولعل مما كان يخبئه الغيب أن يكون الإخوان المتدربون في برنامج التدريب الرياضي الصباحي خارج المعسكر في صبيحة يوم الإثنين الموافق 1969/8/25، عندما أغارت الطائرات الإسرائيلية على وجبتين بينهما ساعة واحدة مستهدفة معسكر العالوك، وآخر لحركة فتح في منطقة السخنة.

استخدمت طائرات الفوتور Vautour والميستير Mystère أسلوب التمشيط بالصواريخ وقنابل النابالم Napalm، بناء على صور التقطها عملاء الاحتلال الذين كانوا يحومون حول معسكرات الفدائيين. وتبين أن كل خيمة من خيم المعسكر تلقت صاروخاً أحدث فجوة قطرها ستة أمتار بعمق ستة أمتار أيضاً حتى إن قماش الخيمة أصبح كالمناديل الورقية الخفيفة. ولم تكتفِ الطائرات المغيرة بذلك، بل أتبعته باستخدام المدافع الرشاشة في تمشيط أرض المعسكر.

نتج عن الغارة الإسرائيلية إصابة حارس المعسكر بشظايا الصواريخ الإسرائيلية أدت إلى استقرارها وسط الكبد والطحال والأحشاء الداخلية، الأمر الذي ترتب عليه أن يبقى وقتاً طويلاً في المستشفى حتى يتعافى⁶⁰.

وفي اليوم التالي، الثلاثاء الموافق 1969/8/26، عاد إبراهيم عاشور مع محمد طه دريس لتفقد المعسكر. وفي فترة الغداء، جاء صبي من قرية مجاورة يحمل قذيفة لم تنفجر سلمها لعاشور الذي أخذ يشرح لإخوانه عن قوتها التفجيرية. وفيما هو كذلك،

⁵⁹ أحمد أبو سعد، مقابلة شخصية، 2010/1/9.

⁶⁰ عبد العزيز علي، مقابلة شخصية، 1997/7/30.

انفجرت القذيفة فقتلته على الفور وإلى جانبه رضوان كريشان، فكانا أول شهيدين ينالا الشهادة من الإخوان المسلمين في قواعد الشيوخ، كما جرح عدد آخر من الإخوان منهم إبراهيم المشوخي وسالم معاينة.

وعلى إثر تدمير الطيران الإسرائيلي لمعسكر العالوك، نقل الإخوان المسلمون دورات التدريب إلى قواعد الفدائيين القتالية مباشرة، وأضحى هناك مستويات في برامج تدريب المتطوعين⁶¹.

ثالثاً: قواعد التموين والقتال:

كان من سمات القواعد الفدائية في الفترة السابقة لحرب يونيو 1967 أنها صغيرة، ومنتشرة ومتحركة، ولا تحظى بالشرعية اللازمة. وقد رأت حركة فتح بعد أربعة أشهر من قرار العودة إلى العمليات العسكرية، وتحديدًا في مطلع سنة 1968، أن عليها أن تنهي هذه المرحلة بتثبيت القواعد الفدائية ومعسكرات التدريب، وإعطائها طابعاً شبه شرعي، وهكذا ظهرت القواعد الفدائية العلنية في منطقة الأغوار التي توافقت المنظمات الفلسطينية لتكون القاعدة الآمنة لها، للانطلاق إلى ساحة القتال في الضفة الغربية.

انتشرت القواعد العلنية على طول الضفة الشرقية لغور الأردن، وكان لكل منظمة فلسطينية قواعدها ومعسكراتها، ثم انتقل بناء القواعد العلنية إلى سورية ولبنان، وأخذت في كثير من الأحيان صفة شرعية كاملة أو شبه كاملة. وانتزعت المنظمات حقها في الوجود على جزء غير محتل من الأرض العربية للقيام بعملياتها بغية تحرير الجزء المحتل من هذه الأرض⁶².

كانت العمليات العسكرية ضدّ العدو في البداية محدودة العدد والحجم، وأدت قلة الإمكانيات، والصعوبات التي يلاقيها أيّ عمل عسكري في بداياته الأولى، إلى جعل عمليات فتح عبارة عن حرب عصابات سرية صغيرة تشنها مجموعات فدائية تتعاطف الجماهير مع أهدافها، ولكنها لا تلتف حولها لمشاركتها وحمائيتها⁶³.

⁶¹ محسن محمد صالح، مرجع سابق، ص 195-196.

⁶² الهيثم الأيوبي، "عشرة أعوام من عمر الكفاح المسلح الفلسطيني"، شؤون فلسطينية، العدد 42/41، كانون الثاني/يناير - شباط/فبراير 1975، ص 244-245.

⁶³ المرجع نفسه، ص 239-240.

بعد الانتصار في معركة الكرامة، تقاطر المتطوعون على حركة فتح، وتنامت قوة العمل الفدائي وانخرطت أعداد كبيرة من الشباب الفلسطيني في المقاومة. ومن هنا، نظمت قيادة حركة فتح قواعد الفدائيين التابعة لها تنظيمًا عسكرياً، ورتبته ترتيباً تسلسلياً، فجعلت ما بين 1-15 مقاتلاً في جماعة ولها قائد، ولكل ثلاث جماعات فصيل، ولكل ثلاث فصائل سرية، ولكل ثلاث سرايا وحدة، ولكل ثلاث وحدات قطاع، إضافة إلى كتيبة إسناد وسرية فرسان ومخزن لوازم وتموين⁶⁴.

اجتمع المكتب التنفيذي لإخوان الأردن مع المجموعة الأولى من الإخوان التي أنهت التدريب، وذلك بعد تدميرهم ومطالبتهم بالعمل الجهادي بعد انتهاء فترة التدريب. وقد توافق الإخوان مع قيادتهم أن الظرف السياسي والإقليمي لا يسمح بإقامة منظمة جهادية إسلامية مستقلة، ذلك أن أنظمة عبد الناصر والبعث إلى جانب المنظمات اليسارية الفلسطينية وعلاقاتها القوية مع الاتحاد السوفياتي لن تسمح بذلك، كما أن الإخوان وقتها ليس عندهم إمكانيات أن يطرحوا مثل ذلك. وفي المقابل، فوجئ الإخوان بما عرضه المكتب التنفيذي الذي أبلغهم أنه اتفق مع حركة فتح بتوزيع الإخوة المتدربين فرادى أو كل اثنين معاً على قواعد العاصفة، الجناح العسكري للحركة. وحين ناقش الإخوان المتدربون المكتب التنفيذي بهذا الأمر، قال إنه وجد أن ذلك هو الحل الأمثل لإرضاء الإخوان حتى يمارسوا الدعوة والجهاد في تلك القواعد، خصوصاً وأن هدف الإخوان ليس الظهور، وإنما إرضاء الله سبحانه وتعالى.

وحول ذلك، يقول علان بلال⁶⁵:

على الرغم من أنني كنت أصغر الحاضرين سناً، إلا أنني لم أستطع التحمل، فرفعت يدي، ثم وقفت قائلاً: إن هذا الأمر لا أوافق عليه، فنحن أكثر الناس معرفة بحركة فتح وما يجري داخل معسكراتها، فإذا توزعنا على قواعدهم، لن يسمحوا لنا أن نجاهد ولا أن نقاتل اليهود، بل سيشغلوننا فراشين عندهم أو طبّاخين، وسيسبوا ديننا ورسولنا، وقد يمنعونا من الصلاة، خاصة وأن اليساريين والهمل قد تغلغلوا داخل فتح، وهؤلاء يكرهون الإسلام والإسلاميين.

⁶⁴ عايد عمرو، معركة الحزام الأخضر (رام الله: دن، 2003)، ص 66-68.

⁶⁵ علان بلال، مقابلة شخصية، 2010/4/28.

وأضاف أيضاً:

إنه إذا كنتم تريدون أن ندخل جميعاً في فتح، فإن الطريقة المثلى أن ندخل كضباط، أي أن نأتي بالدعوة من فوق، وليس من تحت، وأنا مستعد أن أسير في هذه الطريقة. وبعد نقاش حار، أعلنت انسحابي، فقالوا لي إجلس يا علان، فرفضت وخرجت من الاجتماع، وسرت من العالوك إلى المفرق، ثم عدت لأجد أن الاجتماع قد انفض بعد أن اتخذ بقية الإخوة الموقف نفسه، وهكذا أفشلنا مشروع توزيع الإخوان على قواعد حركة فتح.

قامت حركة فتح في بداية سنة 1969 بتقسيم قوات العاصفة، الجناح العسكري للحركة آنذاك، إلى قطاعات عسكرية، هي: قطاع عجلون بقيادة وليد أحمد نمر (أبو علي إباد)، وقطاع الجولان بقيادة نصر يوسف، وقطاع العرقوب بقيادة بادي العواد، وقطاع جرش بقيادة أحمد عفانة (أبو المعتصم)، والقطاع الشمالي بقيادة معاذ العابد (أبو سامي)، وكان هناك وحدة مركزية للرصد بقيادة أبو علي مهدي بسيسو.

وزعت قوات العاصفة القطاع الشمالي إلى ثلاث وحدات: الوحدة الشمالية ومقرها مدينة ملكا بقيادة جمال عيسى، والوحدة الوسطى ومقرها في بلدة الطيبة بقيادة أديب الزرعيني، والوحدة الجنوبية ومقرها بلدة دير أبي سعيد بقيادة صالح محمد أبو الهيجا (أبو فتحي)⁶⁶.

أصبح القطاع الشمالي بقوات العاصفة يتكون من أربع وحدات بعد اكتمال تدريب ما بين ثلاثمائة وأربعمئة من مقاتلي الإخوان المسلمين، توزعوا على عدد من القواعد بين قرى محافظة إربد. وقد أطلقت قوات العاصفة على الكتيبة الجديدة اسم "وحدة الشهيد خالد أبو العلا"، على اسم ضابط من قوات العاصفة قاد إحدى العمليات الفدائية لاقتحام منطقة الحمة السورية، واستشهد في العملية⁶⁷.

كانت قواعد الإخوان المسلمين تضم مقاتلين من تنظيمات الإخوان المختلفة، ومن يماثلهم في الالتزام والصلاح، حيث كانت قيادة الإخوان تقبل العناصر الفدائية الملتزمة

⁶⁶ عايد عمرو، مرجع سابق، ص 44-45.

⁶⁷ أحمد أبو سعد، مقابلة شخصية، 2010/1/9.

بشعائر الإسلام من المنظمات الأخرى بعد التأكد من صحة التزامها وولائها للإسلام. ويضيف ذيب أنيس أنه دخل قواعد الإخوان من هذه العناصر العدد الكثير إعجاباً بما رأوه في الإخوان من ضبط وربط، وتمسك بالإسلام، وجرأة في قتال اليهود، وحبّ الشهادة⁶⁸.

1. قاعدة غزة:

ظهر البون الشاسع بين المقاتل من الإخوان وبقية المتطوعين في صفوف حركة فتح منذ بداية تدريب المجموعة الأولى من الإخوان المسلمين في معسكر العالوك، من حيث الأهداف والسلوك ناهيك عن الانضباط والأخلاق. ومن هنا، كان إصرار الإخوان على الاستقلال في قواعد خاصة بمتطوعيهم، حيث أنشأوا أولاً قاعدة قريبة من قرية الرفيد أخذت اسم "قاعدة غزة"، تولى القيادة فيها أحمد أبو سعد، وهو من إخوان مدينة الرصيفة في الأردن.

وقد بدأ الفدائيون من الإخوان المسلمين فور وصولهم إلى هذه القاعدة، بمشاركة الوحدات الأخرى التابعة للقطاع الشمالي بقوات العاصفة في دوريات الاستطلاع للعمليات الفدائية في منطقة الأغوار. وكانت باكورة العمليات المشتركة بين الجانبين، مشاركة الإخوان في استطلاع وتنفيذ عملية الحزام الأخضر التي استهدفت ثلاث مستعمرات⁶⁹.

2. قاعدة الخليل:

ومع انتهاء برنامج تدريب المجموعة الثانية من متطوعي الإخوان المسلمين الأردنيين والفلسطينيين، وانتظام العشرات من الإخوان السوريين والمصريين والسودانيين وبعض اللبنانيين والمغاربة، الذين تفرغوا للعمل الفدائي المقاوم، اضطر المسؤولون الميدانيون الطلب من قيادة القطاع الشمالي بقوات العاصفة إنشاء قاعدة جديدة لاستيعاب الوافدين الجدد. وكانت تلك القاعدة في منطقة بين قريتي سال وبشرى القريبتين من مدينة إربد، أطلق عليها الإخوان اسم "قاعدة الخليل"⁷⁰.

⁶⁸ ذيب أنيس، مقابلة شخصية، 2008/10/4.

⁶⁹ المرجع نفسه.

⁷⁰ سعود أبو محفوظ وفاروق بدران، مرجع سابق، ص 27.

3. قاعدة بيت المقدس:

وهي القاعدة الثالثة للإخوان المسلمين تحت مظلة حركة فتح، أقيمت في منطقة الشجرة القريبة من قرية مرو، وتولى القيادة فيها أحد الإخوان المسلمين من دير أبي سعيد ثم عبد الله عزام حتى أحداث أيلول⁷¹.

كانت قيادة القطاع الشمالي في حركة فتح بقيادة أبو سامي متعاونة إلى أبعد الحدود مع الإخوان المتطوعين، لما رأته من علاقة ناجحة لهؤلاء الإخوان سواء مع المواطنين في القرى القريبة أم قوات الجيش الأردني، وحتى سائر القواعد الفدائية الأخرى. وكانت تلك القيادة ترى ذلك، حين يحدث احتكاك بين المنظمات الفدائية والجيش، إذ كان الإخوان يقومون بدور الوساطة. ولذلك حرصت قيادة حركة فتح على احتكاك مقاتليها مع متطوعي الإخوان المسلمين، فكانت تصر على تشكيل المقاتلين الذين يفرزون سواء لدوريات الاستطلاع أم لتنفيذ العمليات الفدائية الكبيرة بمشاركة قواعد الشيوخ حتى وإن كانت بشكل رمزي⁷².

4. قاعدة بدر الكبرى:

انضم عدد من الشباب الأردني في مناطق قواعد الشيوخ إلى صفوف الإخوان المسلمين بعد أن انتشرت الأخبار الطيبة لتلك القواعد بين الناس، وخصوصاً التحام الإخوان مع الأهالي والجيش، والجرأة والإقدام التي ظهروا عليها من خلال العمليات الفدائية التي شاركوا فيها. كما أن أخبار تلك القواعد بين سائر الإخوان في الأردن والبلاد العربية جلبت المدد البشري والمادي والمعنوي.

وبحكم إيمان الإخوان المتطوعين وإخلاصهم لله وتجردهم للعمل في سبيله، واندفاعهم إلى الشهادة، استطاعت قواعد الشيوخ أن تجذب إليها الكثير من أفراد المنظمات الأخرى. ومن أمثلة ذلك، أن استخبارات فتح المسماة الرصد الثوري نقلت أحد أفرادها إلى قواعد الشيوخ لرصد تحركات الإخوان وأسرارهم، ولكن بعد أن أمضى معهم فترة من الوقت أباح لهم بسرهم، وأدى الصلاة معهم، ورفض العودة إلى قاعدته⁷³.

⁷¹ ذيب أنيس، مقابلة شخصية، 2008/10/4.

⁷² سعود أبو محفوظ وفاروق بدران، مرجع سابق، ص 28-29.

⁷³ المرجع نفسه، ص 29.

أقام الإخوان المسلمون قاعدة جديدة لهم في منطقة قريبة من قرية المغير، أطلقوا عليها اسم "قاعدة بدر الكبرى"، تولى القيادة فيها محمد طه دريس. وبعد استشهاد النقيب محمد سعيد باعباد في اشتباك مسلح مع العدو الصهيوني، أعيد تسمية القاعدة باسم "قاعدة الشهيد محمد سعيد باعباد" تكريماً وتخليداً للضابط اليمني. وكان فوزي أبو الخير (أبو صبحي) أحد الرواد التي تكونت منها قاعدة بدر الكبرى، وأول من أطلق النار على العدو من قاعدته، وكان ضمن الذين أحضروا جثمان باعباد⁷⁴.

كان لنجاح دوريات الاستطلاع والعمليات المشتركة بين قواعد الشيوخ وقوات العاصفة، أن طالب الإخوان من مسؤولهم أبو أسامة أن يقوم الإخوان بتنفيذ عمليات فدائية مستقلين عن غيرهم، وهو ما تمّ الاتفاق عليه مع قيادة القطاع الشمالي في حركة فتح التي اشترطت بالمقابل، أن يكون ضابط العمليات من فتح.

وما حدث، أن ذلك الضابط عاش بين الإخوان كواحد منهم، حيث يقول قائد قاعدة غزة أحمد أبو سعد:

كانت تلك العمليات ودوريات الاستطلاع المشتركة كافية لأن يطالب الإخوان المقاتلون الأخ المسؤول أبو أسامة بأن يستقل الإخوان في عملياتهم الفدائية. وقد وافق المسؤولون في فتح على ذلك بشرط أن يكون ضابط العمليات منهم، وهذا هو الذي حصل. وعاش ضابط العمليات الذي نسيت اسمه كواحد من عناصرنا في قاعدة غزة، وكنت مسؤولاً عنه، ولم يحاول الإخوان استشارته في أي عملية. ويبدو أن الجو الإسلامي الذي عاشه في القاعدة جعله يقبل بالأمر، وينسى أنه هو الضابط ومنسق العمليات المسؤول، وفي إحدى دوريات الاستطلاع شارك فيها كواحد منا دون النظر إلى رتبته⁷⁵.

واستلم الإخوان كذلك، مسؤولية كثير من العمليات التي شاركوا فيها مع أفراد من مجموعات قوات العاصفة. وليس هذا فحسب، بل إن قيادة القطاع الشمالي في حركة فتح طلبت أن يتولى الشيخ ذيب أنيس المسؤول الإداري لقواعد الشيوخ مسؤولية قوات ميليشيا فتح في منطقة إربد. وقد استمر ذيب أنيس في موقعه العسكري مع

⁷⁴ المجتمع، 1972/6/6، ص 14.

⁷⁵ أحمد أبو سعد، مقابلة شخصية، 2010/1/9.

حركة فتح حتى بداية سنة 1970، حيث استلم بدلاً منه أحمد نوفل الذي بقي في موقعه حتى أحداث أيلول⁷⁶.

5. قاعدة الأسلحة الثقيلة:

استطاع الإخوان المسلمون أن يربّوا مجموعة متميزة من الشباب المسلم على العقيدة السليمة، وعلى الرجولة والخشونة. وقرنَ الإخوان القول بالعمل، فأصبحوا في طليعة المجاهدين، يتكئ خطبائهم عبد الله عزام وذيب أنيس وأحمد نوفل على الكلاشنكوف عند إلقاءهم خطبة الجمعة، ويتحدثون بملء حريتهم عن الدعوة، مخترقين حاجز "الإرهاب الفكري" الذي كان مضروباً حولهم.

وكان للدماء الزكية التي سالت منهم، والتي ضمخت أرض الأردن وفلسطين، الأثر البالغ في نشر الدعوة، إذ إن الكلام لا يؤثر في الناس كما يؤثر فيهم العمل المقرون بالتضحيات.

ومن جانب آخر، فإن الدور الذي لعبه الإخوان سواء في دوريات الاستطلاع أم العمليات المشتركة، وحتى العمليات التي نفذها مجاهديهم منفردين، وما قدموه من تضحيات وشهداء، جعل قيادة حركة فتح تستجيب لمطالبهم، فزودتهم بالأسلحة الثقيلة.

أنشأ الإخوان المسلمون قاعدة جديدة في منطقة قريبة من قرية علعال، خصصت للأسلحة الثقيلة مثل: الدوشكا Dshk، والهاون، والألغام المضادة للدبابات. وكان عدد الإخوان المقاتلين في هذه القاعدة يتراوح بين عشرين إلى ثلاثين مجاهداً⁷⁷.

6. قاعدة الهام:

وكما يدل اسم هذه القاعدة، فهي تقع في منطقة قريبة من قرية الهام، كان من مهام المقاتلين فيها استقبال المستجدين وتدريبهم وتهيئتهم للاشتراك في المهمات القتالية⁷⁸.

⁷⁶ ذيب أنيس، مقابلة شخصية، 2008/10/4.

⁷⁷ سعود أبو محفوظ وفاروق بدران، مرجع سابق، ص 29.

⁷⁸ ذيب أنيس، مقابلة شخصية، 2008/10/4.

رابعاً: العمليات وارتقاء الشهداء:

على الرغم من أن الظروف الذاتية والموضوعية التي رافقت إنشاء معسكرات التدريب كانت على درجة عالية من الصعوبة والتعقيد من حيث نقص الخبرة العسكرية لدى المتطوعين الأوائل، إلا أن الأوضاع والنتائج التي أفرزتها دورات التدريب وقواعد الشيوخ أتاحت المجال واسعاً لانتقال العمل الفدائي للإخوان المسلمين من دائرة التهيئة والإعداد إلى دائرة الفعل المقاوم.

كما أن التأييد الهائل الذي لقيته هذه القواعد من كوادر الإخوان المسلمين في الأردن والبلاد العربية، كان من علامات الصحة والعافية التي تؤشر إلى الزخم المتعاظم لتبني الكفاح المسلح وممارسته عملياً بعد أن زالت الأسباب السياسية والأمنية التي كانت تحول دون ذلك. وهكذا، بدأ يتعزز الأساس المادي لوجود قواعد الإخوان المسلمين الفدائية، وأخذ الخط البياني للعمليات الفدائية يتصاعد بصورة ملحوظة. ولم تعد المنظمات الفلسطينية ذات التوجه الوطني والقومي واليساري وحدها في الميدان، فقد أخذت ساحة العمل الفلسطيني المسلح تشهد وجود الإخوان المسلمين، بل إن عمليات قنص جنود الاحتلال كانت ”الخبز اليومي“ للإخوان في قواعد الشيوخ، حتى إن الشيخ أحمد نوفل يقر بصعوبة إحصائها لكثرة عددها⁷⁹.

إن التاريخ العسكري الفلسطيني يستطيع أن يفخر بمعارك المواجهة الباسلة التي خاضتها المجموعات الفدائية للإخوان المسلمين والتي استمر بعضها ساعات طويلة بالرغم من التفوق العسكري الهائل لقوات الاحتلال، وباعتراف الناطق العسكري الصهيوني نفسه.

كما شاركت قواعد الشيوخ في تطوير الكفاح المسلح الفلسطيني من قتال المجموعات الصغيرة، وفق تكتيك ”أضرب واهرب“ إلى شنّ عمليات مواجهة عسكرية بمجموعات كبيرة، لاقتحام مستعمرة أو أكثر، بهدف إيقاع أكبر خسائر ممكنة بالعدو. وقد برز من هذه العمليات: عملية الشهيد عز الدين القسام، وعملية الحزام الأخضر، وعملية

⁷⁹ أحمد نوفل، مقابلة شخصية، 2007/3/26.

الأرض الطيبة، وعملية دير ياسين، وعملية الشهيد فرحان السعدي، وعملية الشهيد عبد القادر الحسيني، وعملية الشهيد إبراهيم أبو دية⁸⁰.

وكان من شأن هذا التصعيد العسكري الكبير إلى جانب أشكال العمليات الفدائية الأخرى أن يكتف العدو من وجوده العسكري، وأن يضع في حالة الاستنفار القصوى قوات عسكرية في مختلف المناطق، مما جعل الاحتلال عمليةً باهظة التكاليف بشرياً ومادياً. وقد اتخذ هذا الاستنفار أشكالاً متعددة، دون أن يكتفي في دفاعه عن المستعمرات في غور الأردن على السكان المسلحين والمدربين. وقد اختار إلى جانب بناء تحصينات منيعة داخل المستعمرات، إقامة عدد كبير من الكمائن القوية ونقاط الإنذار والدوريات على طريق اقتراب الفدائيين، ثم أقام بعد ذلك شبكات الحواجز الإلكترونية وحقول الألغام، ودعم ذلك كله بتجمعات عسكرية قوية واحتياط متحرك من المشاة قادرة على الانتقال السريع لمواجهة عمليات العبور والاقتحام الليلية ضدّ المواقع الاستيطانية والعسكرية، إلى جانب تغطية كل موقع مهدد بنيران المدفعية ومدافع الهاون⁸¹.

يبدن أن حجم وفعالية تلك العمليات وتأثيرها كان كبيراً، وإن كانت اعترافات الناطق العسكري الإسرائيلي لا تتيح لنا الخروج بصورة شاملة ومتكاملة عنها. كما أن هذه الاعترافات إنما تتصل بالجانب العسكري وحده، حيث يحرص العدو على إخفاء خسائره، أو التقليل منها إلى أدنى حدّ ممكن.

ففي بيان الناطق العسكري الإسرائيلي في أعقاب عملية عز الدين القسام، اعترف العدو بتدمير أحد المنازل بواسطة عبوات متفجرة. ولكننا نشير في هذا المجال إلى اعتراف جانبي من العدو بعد ذلك بفترة حين نقراً خبراً صغيراً في صحيفة Maariv الصادرة في 1969/5/11، لا علاقة له بتصريح الناطق العسكري، وإنما باجتماع تمّ بين مدير دائرة العقارات وقائد المنطقة الشمالية في الجيش الإسرائيلي، وذلك بهدف تحديد قيمة الأضرار التي بلغت، كما قال الخبر، نصف مليون ليرة إسرائيلية⁸².

⁸⁰ مصطفى طلاس، الثورة الفلسطينية: 1965-1987 (دمشق: دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، 1989)، ص 117-118.

⁸¹ المرجع نفسه، ص 122؛ وعابد عمرو، مرجع سابق، ص 70.

⁸² مصطفى طلاس، مرجع سابق، ص 132.

حركة فتح وأجهزتها المختلفة لم تأتِ على ذكر أي شيء عن مشاركة الإخوان المسلمين في العمل الفدائي تحت راية قوات العاصفة، ولا حتى الشهداء، ناهيك عن العمليات التي نفذها الإخوان وأصدرت حركة فتح بيانات تبنيها. والمرجع الوحيد الذي عثرت عليه هو إشارة الباحث المقرب من القطاع الغربي لحركة فتح عبد الله عيسى في كتابه "متفجرات في مكتب شامير". ولأهمية ما ذكره الباحث، نعيد نشر ما يهمننا، وهو التالي⁸³:

في مرحلة مبكرة من بداية الثورة الفلسطينية حاول قادة حركة التحرير الوطني الفلسطيني فتح الاتصال بكافة القوى السياسية والشخصيات الوطنية والإسلامية الفلسطينية لاستقطابهم لصالح الحركة الناشئة. وعلى الرغم من أن معظم هذه القوى لم تفرح بولادة هذا المولود الغامض في حينها، فقد نجحت بعض هذه الاتصالات وفشل البعض الآخر لأسباب عديدة، أو لعل المثير في الأمر أن شخصيات عديدة غيرت آراءها في حركة فتح، بعد نجاحها الساحق والسريع على الساحة الفلسطينية وسيطرتها على منظمة التحرير الفلسطينية، وحسمها المعركة السياسية لصالحها. وربما أسهمت الجذور الإسلامية لقادة حركة فتح في فتح حوار هادئ وبناء مع حركة الإخوان المسلمين، التي يحس قاداتها بمرارة نحو جمال عبد الناصر، الذي تنكر لهم بعد مساعدتهم له في ثورة الثالث والعشرين من [تموز] يوليو، وكذلك نحو حركة فتح التي كان بعض قاداتها أعضاء في حركة الإخوان. ولم ينس هؤلاء علاقة القادة الفلسطينيين بحركة الإخوان في الخمسينات وأصروا على القول دائماً بأن الثورة الفلسطينية بدأت إسلامية وستنتهي إسلامية. وتجسد هذا الطموح خلال السنوات الأخيرة بإعلان حركة حماس داخل الأرض المحتلة. وفي تلك المرحلة، نجحت فتح تحديداً في استقطاب معظم القوى والشخصيات الفلسطينية، ولا سيما بعد معركة الكرامة لأنها طرحت نفسها كحركة للشعب الفلسطيني لتحرير وطنه بدون أيديولوجية معينة، وبقيت منتبهة إلى مخاطر السقوط في فخّ الأيديولوجية. ولم تسقط به، رغم الضغوط العنيفة التي تعرضت لها في مراحل عدة وبقيت ترى في تبني أيديولوجية ما سيؤدي بها إلى التقوقع والابتعاد عن الجماهير ويفقدها ميزتها الخاصة التي استطاعت من

⁸³ عبد الله عيسى، متفجرات في مكتب شامير (عمّان: دار الإبداع للنشر والتوزيع، 1994)، ص 21-26.

خلالها استقطاب هذه القوى بكافة اتجاهاتها السياسية وعجزت باقي القوى الفلسطينية في منظمة التحرير الفلسطينية إلى الآن عن منافستها.

مع بداية العمل الفدائي، تولى مهمة الاتصال بحركة الإخوان المسلمين بشكل خاص الشهيدان أبو إياد وأبو جهاد، ورفضت حركة الإخوان المشاركة في الثورة الفلسطينية إلا بشكل مستقل في قواعد عسكرية خاصة بها وبشكل سري غير معلن، وبعد مفاوضات تمّ التوصل إلى اتفاق سري بين قيادتي حركتي الإخوان وفتح على إقامة قواعد عسكرية خاصة تقوم فتح بتقديم التجهيزات والأسلحة والخبرة والتدريب، في حين أن إذاعة العمليات يتم باسم قوات العاصفة. كما تمّ الاتفاق على طبيعة هذه العمليات، بحيث تقوم حركة الإخوان بتنفيذها بشكل مستقل وأحياناً بالتنسيق مع الجناح العسكري لحركة فتح، أي عمليات فدائية مشتركة.

وقد لاقت هذه الصيغة ارتياحاً لدى القيادتين لعدة أسباب، فحركة الإخوان المسلمين تخشى المتاعب في حال كشف مشاركتها في العمل الفدائي بسبب كثرة الخصوم والصورة الكريهة التي كان الإعلام المصري يبثها آنذاك حولها، كما أن حركة فتح كانت تخشى أيضاً من جانبها ردّ فعل الرئيس جمال عبد الناصر على هذا الاتفاق خاصة أنه قدم للثورة الفلسطينية تسهيلات كثيرة توجت بالزيارة التي قام بها الرئيس أبو عمار إلى الاتحاد السوفياتي. وفعلاً، بعد إبرام هذا الاتفاق، بدأ التنفيذ الفعلي وتشكلت القواعد العسكرية الإسلامية أو قواعد الشيوخ وكان أبرز قادتها عبد الله عزام وذيب أنيس وأحمد نوفل.

والتزم الجانبان طوال فترة العمل المشترك ببنود هذا الاتفاق، ولم يدع بيان واحد باسم حركة الإخوان المسلمين، كما لم تكن قواعد الشيوخ ثابتة من حيث العدد أو الحجم فكان يصل عددها إلى ستّ وأحياناً عشر قواعد. واستمرت هذه القواعد في العمل بنجاح، ونجحت بالقيام بعمليات فدائية عديدة بعضها خاص بحركة الإخوان المسلمين والبعض الآخر مشترك مع حركة فتح من حيث الإعداد والاستطلاع والتدريب والتنفيذ، وعادة ما كانت تتم المشاركة في العمليات الكبرى.

وكانت حركة الإخوان المسلمين ترى أنه من الحكمة أن يتم التنسيق مع حركة فتح دون غيرها لأنها الأقرب إليهم، وبالمقابل كانت قيادة الثورة

الفلسطينية تأنس لهم لصدق القصد. وفي تلك الفترة بدأت العلاقة بين الشيخ عبد الله عزام وحمدي سلطان وأبو حسن قاسم، من خلال العمل الفدائي، وقام عبد الله عزام بالمشاركة مع حمدي وأبو حسن في العديد من العمليات الفدائية أو الاستطلاع، وكان لا يفصلهم أحياناً عن الموت سوى أمتار. وفي إحدى الليالي، كان الشيخ يكمن مع مجموعة من الفدائيين قرب موقع إسرائيلي للاستطلاع، وألقى أحد الجنود بحجر صغير أصاب رأسه، وصمت ولم يرفع صوته، وتندر رفاقه فيما بعد بقولهم الحجر أفضل من الرصاص.

ويضيف عبد الله عيسى:

من أبرز العمليات التي تمّ تنفيذها وأعلن عنها في قوات العاصفة، عملية دير ياسين، وكانت تستهدف ضرب مستعمرة في الجولان تدعى ناحال هجولان [Nahal Golan]، وبدأت العملية مشتركة مع حركة فتح من حيث الاستطلاع وتسجيل الأهداف والتنفيذ، قتلت مجموعات قطع الطرق المؤدية إلى المستعمرة، وأخرى الاقتحام، ومجموعات لتغطية الانسحاب. وفي ليلة الرابع عشر من أيلول 1969، كانت المستعمرة الإسرائيلية تتحول إلى بركان من حجم الهجوم المباغت، فتم تدمير نادي الضباط ومحطة اللوقود ومستودعات التموين وسيارات عسكرية إسرائيلية كما يروي شاهد عيان، استغرقت العملية حوالي ساعة ونصف بعد أن تمّ عزل المستعمرة من قبل القوات المهاجمة من الجهتين الشمالية والجنوبية وذلك بعد منتصف الليل. وقد اعترف العدو بقتيل واحد واثنى عشر جريحاً محاولاً التقليل من شأن العملية وخسائره فيها، في حين يروي أحد المشاركين بها إلى أن مشاهدات المجموعة الفدائية أحصت حوالي ستين قتيلاً إسرائيلياً، وكانت خسائر المجموعة الفدائية شهيداً واحداً وثلاثة جرحى فقط.

1. عملية الشهيد عز الدين القسام:

شكلت معركة الحمة المعروفة باسم عملية الشهيد عز الدين القسام أول نموذج متقدم من عمليات المواجهة العسكرية بمجموعات كبيرة ضدّ هدف عسكري صغير والعمل على إبادته. ففي الساعة 2:30 بعد منتصف ليلة 1969/5/2، قامت عدة مجموعات قتالية بهجوم انقضاضي مفاجئ على بلدة الحمة في الجولان، بعد أن عزلت المنطقة من جميع مداخلها، وقامت بتدمير مضايق الطرق الرئيسية المؤدية إليها.

يقول أحد المشاركين في العملية: ذهبت أنا وأبو فتحي أبو الهيجا إلى بطارية الجيش العراقي التابعة للمدفعية التاسعة في مرتفعات أم قيس، وقام أبو فتحي بعرض خطة الهجوم على بلدة الحمة. واتفق الجانبان على العملية، وأن تقوم القوات العراقية بانتداب عدد من الضباط العراقيين للمشاركة بالعملية عبر إسناد الفدائيين بالقصف المدفعي.

وكان من هؤلاء الضباط، المرشح أمين الصفوري الذي كان منتدباً من قوات القادسية في جيش التحرير الفلسطيني إلى الجيش العراقي. فاتصل أبو فتحي مع قائد القطاع الشمالي معاذ العابد، الذي رشح علي مسعود الصبيحي (موسى العراقي) ليكون ضابط ارتباط بين الجيش العراقي والقوات الفدائية المهاجمة⁸⁴.

لم يقتصر دور المجاهدين من قواعد الشيوخ على عملية الإسناد الناري، إذ شارك عدد من الإخوان السوريين في القوة المهاجمة التي اجتازت الحدود ودخلت إلى بلدة الحمة، حيث استطاع الفدائيون تحريرها بعد القضاء على حاميتها، والسيطرة على مسجد البلدة، مقر قيادة القوات الإسرائيلية. وقد استفادت المجموعات المهاجمة من حالة الذعر والفوضى التي سادت البلدة، فتقدمت لاحتلال مواقعها تحت سائر ناري من مجموعات الإسناد، والمصوبة بدقة على قوة العدو في منطقة المخفر. وتمكنت من احتلال البلدة خلال أقل من نصف ساعة، حيث باشرت بتنفيذ مهمتها بنسف عدد من المرافق والمنشآت. كما قامت المجموعات الفدائية برفع العلم الفلسطيني على مكانين بارزين، أحدهما فوق مئذنة المسجد.

وقرابة الساعة 3:30 فجراً، حاول العدو دفع مجنزرتين عن طريق سمخ لنجدة البلدة، فتصدت لها مجموعة الإسناد ودمرتها. كما دمرت مجنزرة أخرى حاولت التقدم عن طريق الجولان، مما فرض على العدو الانتظار، ومشاغلة المنطقة بالنيران حتى الساعة 5:00 صباحاً، عندما دفع بجرافة لفتح الطريق المدمرة أمام دبابة وأربع مجنزرات. وقد تصدى الفدائيون لقوة النجدة الإسرائيلية، واستطاعوا إعطاب الجرافة والدبابة وإحدى المجنزرات، قبل أن ينسحبوا من المنطقة في قرابة الساعة 6:00 صباحاً، وهي تحمل 18 قطعة سلاح غنمتها من البلدة، وبعد أن ألحقت خسائر جسيمة في صفوف الاحتلال الصهيوني، حيث قدرت خسائره بتدمير أو إعطاب دبابة وثلاث مجنزرات وسيارة

⁸⁴ عايد عمرو، مرجع سابق، ص 49-50.

عسكرية حمولة طنّ واحد (ألف كغ)، بينما استشهد الفدائيان خالد أبو العلا وأمين الصفوري وأصيب اثنان آخران بجروح⁸⁵.

غير أن بلاغ الناطق العسكري الإسرائيلي كشف جزئياً عن الحقيقة حين تحدث أن مجموعة من الفدائيين العرب عبرت نهر اليرموك في الصباح الباكر من ذلك اليوم، وتوغلت في منطقة الحمة. واعترف الناطق بأن جنديين قد قُتلا وجرح ثلاثة آخرون، وادعى بأن الجيش الإسرائيلي عثر على كمية كبيرة من المتفجرات والألغام الأرضية في مكان الاشتباك، ولكنه استدرك بأن عبوات متفجرة كان الفدائيون قد زرعوها في منزل انفجرت ودمرت المبنى⁸⁶.

2. عملية الحزام الأخضر:

كان الفصل صيفاً، والقمر يضيء كهفاً في أحد الجبال، وعلى ضوء القمر عرض قائد قوات القادسية بجيش التحرير الفلسطيني فكرة القيام بهجوم واسع وكبير أمام قائد القطاع الشمالي بقوات العاصفة معاذ العابد، وأمام قائد قوات التحرير الشعبية أبو رفعت الحلبي. وفي ضوء الاتفاق الذي تمّ بين هؤلاء القادة، قدمت قوات القادسية وقوات التحرير الشعبية وقوات العاصفة العناصر اللازمة لتنفيذ الهجوم⁸⁷. وقد اشتركت قواعد الشيوخ ضمن قوات العاصفة في هذا الهجوم النوعي، حيث تولت عمليتي الرصد والاستطلاع، إلى جانب توفير عدد من المقاتلين للمشاركة في الاقتحام، ومن هؤلاء: ذيب أنيس (أبو أنس)، وعبد الستار الزعيم، ومحمد القضاة (أبو الشهيد)، ويوسف أبو الرّب (أبو الصديق)، ومحمود البرقاوي (أبو جندل)⁸⁸.

كانت العملية من أكثر العمليات إيلاماً للعدو الصهيوني، وكان لها صدى إعلامي واسع جذب المزيد من المؤيدين لقواعد الشيوخ، كما جذب لها المال والعتاد. ففي سابقة هي الأولى من نوعها، استهدفت العملية مهاجمة مستعمرات ياردينا Yarden،

⁸⁵ مصطفى طلاس، مرجع سابق، ص 123.

⁸⁶ عايد عمرو، مرجع سابق، ص 51.

⁸⁷ المرجع نفسه، ص 64.

⁸⁸ ذيب أنيس، مقابلة شخصية، 2008/10/4.

وبيت يوسف Beit Yosef، ونيفي أور Neve Ur، بالإضافة إلى مستعمرة ناحال جولان⁸⁹.

اعتمدت قوات الفدائيين في هجومها على 150 مقاتلاً من قوات العاصفة وقواعد الشيوخ، و60 مقاتلاً من قوات القادسية، و50 مقاتلاً من قوات التحرير الشعبية، بالإضافة إلى القوة الصاروخية والرشاشات الثقيلة من دوشكا، وبي7 أو B7، ومدافع أس جي 76، ومدافع هاون Mortar عيار 82 و120 ملم، ومدافع بازوكا Bazooka، لتغطية انسحاب القوة المهاجمة بعد تنفيذ العملية والعودة إلى القواعد. وقد تجمعت هذه القوات في "مستنبت المزارع"، وحدد مكان الدخول إلى فلسطين وقطع نهر الأردن من "مخاضة الكركار".

كل هذه التحضيرات الكبيرة والواسعة، والتدريب في أماكن سرية على أهداف وهمية، شبيهة بالمناطق التي سيتم مهاجمتها، لم يأت من فراغ. فقد كان لحركة فتح تجربة سابقة بمجاميع من الفدائيين دخلوا إلى منطقة "بردلا"، إلا أن عدم التخطيط السليم، وعدم الكشف والرصد الصحيحين أدّى إلى فشل هذه العملية فشلاً ذريعاً وإصابة معظم أفراد المجموعة.

أما قوات الجيش الإسرائيلي في المنطقة، فقد توزعت على النحو التالي: فئة من المشاة مع حرس المستعمرة، وقسم رشاشات متوسطة في مستعمرة نيفي أور، ومثلها في مستعمرة ياردينا، وقيادة السرية مع فئة مشاة وقسم هاون 2 و3 بوصة (البوصة تساوي 25.4 ملم) مع قسم رشاشات في مستعمرة بيت يوسف، بالإضافة إلى بطارية هاون، وقوة إسناد مكونة من بطارية هاون وبطارية مدفعية عيار 105 ملم.

وكان هناك ثلاث مواقع دفاعية حصينة تعززها المدفعية والدبابات، وتتحكم في طرق الاقتراب من هذه المستعمرات، هي: الأول تل موسى؛ وفيه سرية مشاة، وقسم رشاشات متوسطة، وقسم هاون 81 ملم، وقسم مدافع 106 ملم، ووحدّة صواريخ أرض-أرض 240. والثاني تل "ناقص 224"؛ وفيه فئة دبابات، وفئة مشاة، وقسم هاون 81 ملم، وقسم رشاشات متوسطة. والثالث هو تل إسماعيل؛ وفيه سرية دبابات، وفئة مشاة، وقسم رشاشات متوسطة.

⁸⁹ مصطفى الأسعد، شهداء الأردن على ثرى فلسطين (عمّان: د.ن، 2003)، ص 188.

استطاعت قوات العزل التابعة للفدائيين أن تتسلل إلى مواقعها المعينة خلف خطوط العدو دون أن يشعر بها، وقد ساعد على ذلك إخضاع المنطقة للاستطلاع المكثف والدقيق، بواسطة الدوريات طيلة ثمانية أيام قبل العملية. ونجحت القوات المكلفة بالهجوم التضليلي في خداع العدو، حيث بدأ العدو بدفع قواته المجنزرة من منطقة بيسان، وأشدوت يعقوب Ashdot Ya'acov، فشل بذلك احتياطه. وبقيت قوات العزل الفدائية مكانها، لم تتدخل في أثناء حركة قوات العدو، وتقدم قواته إلى الحمة بغية تضليله.

تفاجأت جماعة الاقتحام التابعة لقوات التحرير الشعبية في أثناء عبورها لنهر الأردن بكمين للعدو، فقررت عدم الاصطدام به، وعدم إطلاق النار، وأثرت الانسحاب إلى موقع آخر. ولكن المجموعة اصطدمت بكمين للجيش الأردني في أثناء انسحابها، فاشتبكت معه، الأمر الذي أدى لإصابة عدد من أفراد المجموعة. وقد أثر ذلك على ساعة الصفر المحددة للهجوم، فقام قائد المجموعة بتعديلها، وذلك بإضافة نصف ساعة إليها، وساعد على ذلك الاتصال اللاسلكي مع قائد العملية وقادة مجموعات الاقتحام والإسناد.

بدأ الهجوم من قبل المجموعات الثلاث في وقت واحد عند الساعة 11:00 من مساء 1969/8/8، وقامت قوات الإسناد المتمركزة على الجهة المقابلة لنهر الأردن، بفتح نيران أسلحتها الرشاشة والصاروخية على قوات العدو التي انذهلت من حجم النيران. وذهل قادة العدو أيضاً لعدم تمكنهم من اكتشاف حركة قوات الفدائيين المهاجمة على النهر عند دخولها لبعده كمائته عنها، كما فوجئ العدو بحجم الهجوم واتساعه.

وأمام حجم هذا الهجوم الكاسح والمباغت، واستعمال المجموعات الفدائية لعنصر المفاجأة، وأيضاً استغلالهم لصلاحية الأرض في عملية الإخفاء والتمويه، شلت حركة قوات الاحتلال، ولم يستطع دفع أي تعزيزات للمكان أو إحضار نجدات لمنطقة المعركة، حيث إنها عزلت تماماً من قبل الفدائيين، وبقي احتياطي العدو مجمداً في منطقة الحمة طيلة وقت المعركة.

بناء على هذه المعطيات، اقتحم الفدائيون أهدافهم المحددة حيث قامت قوة الاقتحام الأولى بالهجوم على مستعمرة ياردينا وموقع "ناقص 224"، بينما استهدفت مجموعة الاقتحام الثانية مستعمرة نيفي أور وموقع تل موسى، ومجموعة الاقتحام الثالثة مستعمرة بيت يوسف وموقع تل إسماعيل.

استخدمت وحدات الاقتحام الثلاث طوربيدات بنجلور Bangalore Torpedoe لفتح الثغرات في أسلاك المستعمرات والمواقع الدفاعية المغممة والمكهربة، حيث عبرت من هذه الفجوات إلى داخل المستعمرات والمواقع العسكرية، واشتبكت في معركة حامية مع قوات العدو.

استطاعت المجموعات الفدائية قتل وجرح عدد كبير من قوات الاحتلال ومستوطنيه، وتدمير أربع دبابات وخمس مجنزرات ووحدة صواريخ أرض-أرض في موقع تل موسى إلى جانب محطة كهرباء مستعمرة ياردينا. وبعد تحقيق أهدافهم كاملة، عاد الفدائيون إلى قواعدهم شرقي النهر في الأراضي الأردنية، تحت سائر كثيف من أسلحة الإسناد وصواريخ البازوكا والكاتيوشا Katyusha والمدافع. واستكملت القوات المهاجمة انسحابها في مجموعات صغيرة، في تمام الساعة 3:30 عصراً، تحركت جميعها نحو نقطة التجمع التي عينت لها قبل المعركة، خوفاً من ملاحقة مدفعية الاحتلال، وهي تحمل ستة جرحى كانت جراح أحدهم خطيرة. وفي تحد للاحتلال وإجراءاته، قامت مجموعة من الفدائيين بالهجوم على مستعمرة ياردينا في اليوم التالي، وقتلوا وجرحوا ثلاثة مستوطنين، كانوا يسرعون للاختباء في الملاجئ من النيران الغزيرة التي أطلقها الفدائيون.

قام وزير الدفاع موشيه داين Moshe Dayan وقائد الجبهة الشمالية دافيد بن إيلعازر David Ben Eliezer بزيارة مكان العملية الجريئة، وأبلغ الجنرال داين المستوطنين: "ليس باستطاعتنا أن نحول تماماً دون هجمات من هذا النوع، لكننا نستطيع أن نجعل جهازنا الدفاعي في هذه المنطقة أكثر فعالية، وسنفعل ذلك". وأما الجنرال بن إيلعازر، فقد حرّض الجيش الأردني ضدّ الفدائيين حين اعترف هو الآخر "أن الوضع قد تدهور في المنطقة، والقوات الأردنية لم تعد تتخذ إجراءات ضدّ المخربين، وفي هذه الحالة علينا نحن أن نتخذ هذه الإجراءات"⁹⁰.

3. عملية الأرض الطيبة:

استهدفت هذه العملية بلدة الحمة التي تقع على الضفاف الشمالية لنهر اليرموك. وتعدّ الحمة مشتلّ ذو شتاء دافئ، إذ إنها تقع على انخفاض 156م عن سطح البحر،

⁹⁰ عايد عمرو، مرجع سابق، ص 69-82.

وتتمتع بمناخ يماثل مناخ المناطق الإستوائية. كما تتميز بانتشار النباتات الإستوائية، والمياه الدافئة التي تخرج من ينابيعها الثلاثة لتصب في برك ثلاث. وما كان يعطي للحمة أهمية استثنائية، هو وقوعها عند زاوية تلتقي فيها أراضي كل من سورية وفلسطين والأردن، فهي تقع في منطقة وسط بين نهر اليرموك الذي يمر جنوبها ويفصلها عن جبال الأردن. ومن الجهة الشمالية الشرقية، تتصل الحمة بالأراضي السورية بمرتفعات متدرجة نحو الأعلى حيث الجولان. ومن الجنوب الغربي أيضاً سورية التي تفصلها عن بحيرة طبرية بنحو عشرة كيلومترات. كان الجيش البريطاني قد شقّ الطريق إلى الحمة من داخل فلسطين خلال الحرب العالمية الثانية بهدف مهاجمة قوات فيشي Vichy الفرنسية التي كانت تحتل سورية آنذاك. وأما الطريق عبر الجولان، فقد تمّ تعبيدها بعد سنة 1948، واستخدمها الجيش السوري في حرب فلسطين خلال هجومه على منطقة جنوب شرقي بحيرة طبرية. وهكذا كان الوصول إلى الحمة قبل سنة 1948 يتم عبر الطرق التي تؤدي إليها من الداخل الفلسطيني. وبعد النكبة، صار الوصول إليها يتم عن طريق الجولان - القنيطرة - فيق، وذلك حتى سنة 1967، تاريخ احتلال الحمة مع احتلال العدو الصهيوني لمرتفعات الجولان السورية⁹¹.

كان هدف عملية الأرض الطيبة، التي نفذتها المقاومة يوم 1969/9/4، الهجوم والتدمير وإصابة أكبر عدد ممكن من جنود ومستوطني العدو الصهيوني، وشارك فيها عشرون مقاتلاً من قوات العاصفة والإخوان المسلمون الأردنيون والسودانيون والسوريون بعد أن كان ضابط العمليات في حركة فتح قد أعد ما يزيد على مئة مقاتل لاقتحام البلدة. وكان لدوريات الاستطلاع التي قام بها مقاتلو الإخوان دور رئيسي في تجنب مجموعات الاقتحام خسائر لم يكن يعرف مداها إلا الله، إذ كان المطلوب منهم تكرار عملية عز الدين القسام دون الأخذ بعين الاعتبار التحصينات والإجراءات الاحترازية الجديدة التي اتخذها الصهاينة في المنطقة. وقد أخذ ضابط العمليات من حركة فتح برأي دوريات الاستطلاع التي كانت تضم ذيب أنيس وأحمد نوفل وأحمد أبو سعد، بأن يختصر عدد المشاركين في العملية إلى الخمس أو السدس⁹².

⁹¹ عبد الله هاشم، منتجات الحمة السورية: أطماع إسرائيل فيها تطرح إشكالية الحدود، الحياة، 2001/2/13، ص 8.

⁹² سعود أبو محفوظ وفاروق بدران، مرجع سابق، ص 30.

قام الشيخ عبد الله عزام بإلقاء كلمة مؤثرة على جميع المقاتلين المشاركين في الهجوم، حثهم فيها على التوبة والإنابة إلى الله قبل الإقدام على الهجوم الذي يعني الموت ولقاء الله. ويضيف قائد دورية الاستطلاع أحمد أبو سعد⁹³: ”شاء الله أن يتواجد الأخ الشيخ عبد الله عزام في منطقة تجمع المقاتلين الأمامية ليلة العملية. وكان أن ألقى في المقاتلين كلمة مؤثرة، وحثهم على التوبة، والإنابة إلى الله قبل الإقدام على أمر جلل احتمال الموت ولقاء الله فيه وارد في الحساب“.

وتابع أحمد أبو سعد: ”وقد تمّ اختيار نحو عشرين مقاتلاً من الإخوان ومن عناصر فتح، واستبعد الباقون. وكان منهم اثنان من عناصر فتح اغتسلا وتابا، وصليا لأول مرة، وأظنّ أنهما صليا العشاء والفجر. وفي صباح اليوم التالي، نفذت العملية ونالا الشهادة، وكان هذا بفضل الله ثم بتوجيه من الأخ الشهيد عبد الله عزام“.

4. عملية دير ياسين:

استهدفت عملية دير ياسين اقتحام مستعمرة ناحال جولان بعد أن يتم قصفها بالقذائف الصاروخية، وكان عدد المشاركين فيها نحو مئة مقاتل من الإخوان المسلمين وحركة فتح، وتمت بالتنسيق بين قطاعي الجولان في سورية والقطاع الشمالي في الأردن لقوات العاصفة. ومن أبرز المشاركين في دوريات الاستطلاع ثم الهجوم ذيب أنيس وعبد الستار الزعيم الذي كان رامياً ماهراً لقذائف الآر بي جي⁹⁴.

كانت هذه العملية من أكثر العمليات إيلاماً للعدو الصهيوني، إذ إن تحصينات مستعمرة ناحال جولان عبارة عن حاجز إلكتروني ومانع سلكي، علاوة على أجهزة الإنذار من الأشعة تحت الحمراء في منطقة السياج الأمني تساعد على الرؤية الليلية. والسيّاح الإلكتروني عبارة عن سلك بارتفاع ثمانية بوصات تقريباً (نحو 20.32 سم)، مثبت إلى زوايا حديدية (قديمين أي نحو 60.96 سم)، ويتصل هذا السلك بجهاز إنذار يشبه الساعة من نوع ”ماوري أولب“ موجود داخل أحد الملاجئ في المستعمرة أو في مكان سيطرة خلفي بواسطة الجهاز، يمكن تحديد المكان التقريبي لأي شخص يجتاز

⁹³ أحمد أبو سعد، مقابلة شخصية، 2010/1/9.

⁹⁴ ذيب أنيس، مقابلة شخصية، 2008/10/4.

السلك فيتم إنذار القيادة العسكرية في تلك المنطقة لاتخاذ إجراءاتها. وأما المانع السلكي، فيبلغ عمقه 37 قدماً (نحو 11.28م)، ومقسم إلى ثلاثة أقسام: سياج من الأسلاك الشائكة مثبت على زوايا حديدية (سته أقدام نحو 1.83م)، يليه طريق ترابي بعرض عشرة أقدام (نحو 3.05م)، ثم حقل ألغام مختلط بعمق 14 قدم (نحو 4.27م)، يليه طريق بعرض عشرة أقدام (نحو 3.05م)، وأخيراً سياج من الأسلاك الشائكة، يليه طريق رئيسي معبّد. ويوجد ثغرات عبر هذا المانع، ليتمكن المزارعون الصهاينة من الوصول إلى الحقول نهائراً، إلا أنها تغلق ليلاً.

وبالنسبة لوضع المستعمرة وتسليحها، فإن تعزيزات عسكرية نظامية تتولى حراستها بالإضافة إلى سكان المستعمرة أنفسهم. وكغيرها من المستعمرات، فإن ناحال جولان تحتفظ في احتياجاتها من السلاح والمؤن والمعدات، إذ إن كل مستوطن يحتفظ بسلاحه الشخصي في منزله، وهو بندقية أو رشاش عوزي Uzi. كما أن أسلحة مجموعات الحراسة تضم الرشاشات الخفيفة والمتوسطة ومدافع الهاون 2 و3 بوصة. وبشكل عام، الأسلحة المتوفرة في المستعمرة، لمعدل كل مئة مستوطن هي: 8 رشاشات متوسطة، 20 رشاش عوزي، 70 بندقية بلجيكية أف أن أو FN، مدافع بازوكا وحواضن أنيرجا Energa، مدافع هاون، وقنابل يدوية⁹⁵.

في ليلة 1969/9/15، قصف الفدائيون المستعمرة، فوقع العدو في الطعم، إذ إن المستهدف هم المستوطنون داخلها، وغاب عنه أن يكون الجنود المدججون بالسلاح هم الهدف. وهذا ما كان، حيث استهدفت مجموعة الاقتحام نادي الضباط ومستودعات وسيارات عسكرية.

تمكنت مجموعات الاقتحام من تدمير المبنى وعدد من الآليات، وأوقعت عدداً كبيراً من القتلى والجرحى في صفوف الجيش الإسرائيلي قبل أن تنسحب بسلام عائدة إلى قواعدهما. وقد حاول الناطق العسكري الإسرائيلي التقليل من آثار العملية ونجاحها بالادعاء أن خسائر الجيش الإسرائيلي البشرية اقتصر على قتل واحد و11 جريحاً⁹⁶.

⁹⁵ عايد عمرو، مرجع سابق، ص 72-74.

⁹⁶ مصطفى الأسعد، مرجع سابق.

5. عملية مشروع روتنبرغ Rutenberg:

يقع مشروع روتنبرغ على بُعد نحو خمسة كيلومترات في الأراضي الأردنية إلى الشمال الغربي من بلدة الشونة الشمالية. وهذا المشروع عبارة عن بقايا محطة توليد للكهرباء، تعمل على تحويل طاقة الحركة لمياه نهر الأردن إلى طاقة كهربائية تغذي فلسطين بالطاقة الكهربائية أيام الانتداب البريطاني.

استهدفت هذه العملية الهجوم على سيارتين مجنزرتين لجيش الاحتلال كانتا تقومان بالدورية في تلك المنطقة. وهي أول عملية كبيرة ينفذها الإخوان المسلمون منفردين، بعد أن تمّ الاتفاق مع قيادة حركة فتح أن يستقل الإخوان في عملياتهم عن قوات العاصفة، حيث اشترطت الأخيرة أن يكون ضابط العمليات منها. نفذ المجاهدون من قاعدة بيت المقدس في مرو عملياتهم الجريئة الخميس 1970/1/29، بعد عدة دوريات استطلاعية استهدفت القوة الإسرائيلية حيث تفاجأ الجنود الذين كانوا داخل المجنزرتين، دون أن يتمكنوا من الرد على مصادر النيران. واكتفى المجاهدون بالتعامل مع المجنزرتين بالأسلحة الرشاشة، وقنص الجنود داخلها، ثم خاضوا معركة عنيفة مع التعزيزات التي دفعها الاحتلال لنجدة مجنزرتيه، موقعين خسائر أخرى في صفوف الجنود الصهاينة.

وقد تمكن المجاهدون من الانسحاب إلى قاعدتهم، وهم يحملون اثنين من الإخوان السوريين أصيبا في العملية، بعد أن قام الجيش الأردني بإخلائهما من المنطقة، الأمر الذي أدى إلى إصابة أحد ضباطه المشاركين بعملية الإخلاء⁹⁷.

الناطق العسكري الإسرائيلي اكتفى بالاعتراف بأربع إصابات فقط، مدعياً أن هذه الإصابات نتجت عن تعرض دورية إسرائيلية لنيران من الجانب الأردني بالقرب من مستعمرة جيشر Geshar في وادي الأردن. وفيما أعلن ناطق عسكري أردني أن طائرتين للعدو أغارتا على منطقة المشروع في وادي الأردن الشمالي، تبعتهما أربع طائرات أخرى قامت بقصف منطقة الشونة الجنوبية دون أن تقع أي خسائر في الجانب الأردني في كلتا الغارتين، قال الناطق الإسرائيلي إن الغارتين استهدفتا قاعدة للفدائيين انطلق منها الذين استهدفوا الدورية⁹⁸.

⁹⁷ سعود أبو محفوظ وفاروق بدران، مرجع سابق، ص 31.

⁹⁸ لطفى العابد ونبيلة سلباق، *اليوميات الفلسطينية* (بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية - مركز الأبحاث، 1971)، مج 11، ص 62 و 618.

ونتوقف عند المجاهد الجريح أبو مصعب، لننقل قصته التي تدل على نوعية الشباب الذين تربوا في قواعد الشيوخ من أبناء الحركة الإسلامية. فهذا الأخ أصيب في رأسه وجنبه ثم تلقى العلاج وشفاه الله، وذهب لزيارة أقرباء له في الكويت، وعاد مرة أخرى ليلتحق بقاعدته من جديد. وشاءت إرادة الله أن يصاب كالإصابة نفسها التي حدثت له في المرة السابقة، وأن يصاب في المكان نفسه، فما كان منه إلا أن قال: لا فرق هنا أو في الجنة، طريقتنا هكذا. وعندما سأله الطبيب: هل تحس بخوف لأنك أصبت بالمكان نفسه؟ أجابه: سامحك الله، هل المؤمن يخاف؟ لا، استغفر الله، إن المؤمن لا يخاف.⁹⁹

6. عملية أشدوت يعقوب:

خطط الإخوان المسلمون لاقتحام مستعمرة أشدوت يعقوب الثلاثاء 1970/4/28، واختاروا مجموعة منهم بقيادة الضابط السابق بجيش اليمن الجنوبي النقيب محمد سعيد باعباد للقيام بدراسة المنطقة وتنظيم دوريات استطلاعية لجمع المعلومات عن تحصينات العدو في المنطقة.

وحين حاولت المجموعة التي أشار إليها بلاغ قوات العاصفة باسم المجموعة 29 الاقتراب أكثر من الجدار الإلكتروني للمستعمرة، تعرضت لإطلاق نار كثيف من الكمائن الإسرائيلية المتقدمة. وقد استمر تبادل إطلاق النار لنحو ساعة كاملة، اضطر العدو إلى جلب نجدة أكثر إلى أرض المعركة.

وفيما كان لا بد من الانسحاب، وقف البطل الحضرمي وقفة المؤمن الصادق، وتحمل محمد سعيد باعباد مهمة الدفاع عن إخوانه ليسهل انسحابهم وهو يردد: "لا يهمني في أي لحظة يختارني فيها القدر، ولكن كل ما يهمني أن أكون في ساحة الجهاد المقدس، لكي يكون موتي بداية لطريق الجنة التي وعد الله بها المجاهدين في سبيله"¹⁰⁰.

ويتذكر أحد المجاهدين الذين شاركوا في دورية الاستطلاع، وقد أشار إلى نفسه باسم عمّار، قائلاً¹⁰¹: "صدرت إلينا الأوامر بالتحرك إلى منطقة تبعد نحو مئة كيلومتر عن إحدى قواعدنا، وتقتضي تصوير بعض المناطق والمستعمرات اليهودية، وأن نحصل على استطلاعات كاملة للمنطقة المذكورة". ويضيف عمّار:

⁹⁹ المجتمع، 1970/5/5، ص 9.

¹⁰⁰ حسين عبد الله، "من عدن إلى جنة عدن"، المجتمع، 1970/5/5، ص 8.

¹⁰¹ المرجع نفسه.

تحركنا كالعادة على متن سيارات قواعدنا، تارة وتارة أخرى سيراً على الأقدام في الأرض المحتلة، وكنا نتحدث في همس، وكان يظهر على الشهيد علامات الاستبشار والفرح، وقد حاولنا أن نتبين حقيقة ما تحمله نفسه في تلك اللحظة، وهو الذي عرفنا عنه الصبر والصمت والهدوء. فقد عاش بيننا كأبي فدائي آخر، لا يغره منصبه، ولا تعلية رتبته حتى لم نكن نعرف عنه سابقاً بأنه يحمل ماجستير في التربية الإسلامية إلا بعد استشهاد.

ويختم عمار: ”حاولت أن أسأله: أرى أنك مستبشر خيراً هذه المرة، فيرد الأخ: إنني أقرب الآن إلى الجنة من الأرض، بل إنني أرى يا أخي وجهي في الشهيد أبو الحسن يدعوني، وقد صدق بإخلاصه ووفائه، ولحق بأبي الحسن، فهنئاً له في صحبة أبي الحسن وإخوانه الشهداء“.

7. عملية الخامس من حزيران / يونيو:

خطط الإخوان المشرفون على قواعد الشيوخ للقيام بعملية جهادية كبيرة، وقرروا أن تكون في يوم الهزيمة، الخامس من حزيران، رفعاً للمعنويات وانتقاماً من أعداء الله اليهود الصهاينة، وثأراً لكرامة هذه الأمة. وفيما كانت المسيرات الفدائية تشارك أبناء الشعب إحياء ذكرى الخامس من يونيو 1967 في مدينة عمّان، كان الإخوان المسلمون يرتبون لمسيرة من نوع آخر، جعلت الناس والفدائيين والجيش يقفون في الضفة الشرقية لمشاهدة ما يجري في وضح النهار غربي النهر. وقد ذاع صيت ما قام به الإخوان حتى أن إذاعة العاصفة من القاهرة أرسلت أحد مراسليها لعمل مقابلات مع الإخوان الذين نفذوا العملية، غير أن الإخوان رفضوا ذلك قائلين للمراسل: إننا قمنا بهذه العملية في سبيل الله، وليس للتباهي وإجراء المقابلات الصحفية أو الإذاعية¹⁰².

بعد إجراء عمليات الاستطلاع اللازمة، اختار الإخوان المسلمون ستة مقاتلين هم: عبد الله عزام، وإبراهيم إسماعيل (أبو إسماعيل)، وإبراهيم العلوي (أحمد بن بلة)، وفوزي أبو الخير (أبو صبحي)، ومهدي الإدبلي (أبو معاذ)، وصلاح الدين أحمد عبد الله (بلال بن رباح) للمشاركة في العملية النوعية الجديدة التي كانت تستهدف

¹⁰² سعود أبو محفوظ وفاروق بدران، مرجع سابق، ص 31.

الهجوم على دورية مؤلفة لجيش الاحتلال تتكون من كاسحة ألغام ودبابتين إلى الجنوب من مستعمرة كفار رويين Kfar Ruppin.

انطلقت المجموعة الفدائية من قاعدتي بيت المقدس وغزة إلى موقع يقع إلى الغرب من قرية المشارع في نحو الساعة 5:30 من صباح يوم الجمعة الموافق 1970/6/5، واستطاعت بعد أن اجتازت الحدود أن تستدرج الدورية الإسرائيلية إلى أرض مكشوفة ليتم ضرب ألياتها بقذائف آر بي جي والبازوكا قبل أن يقوم الفدائيون بالقضاء على الجنود داخلها بالأسلحة الرشاشة¹⁰³.

كان وزير الدفاع الإسرائيلي موشيه دايان أرسل صحفياً كندياً وآخر سويدياً مع أليات ليطوفوا بهما على الحدود، ويُرِيهما أن العمل الفدائي قد انتهى، وإذ بمجاهدي الإخوان يفاجئونهم، وتنهال القذائف ويُجرح الصحفيان وتدمر الأليات الثلاث ويتم القضاء على طواقمها المكونة من عشرين ضابطاً وجندياً بقيادة ضابط برتبة عالية. وقد استشهد اثنان من خيرة المقاتلين هما: ابن القدس صلاح الدين أحمد عبد الله من قاعدة غزة، وابن حماة مهدي عبد الرزاق الإدلبي من قاعدة بيت المقدس، بقيت جثتيهما على أرض المعركة دون أن يتمكن الإخوان من سحب جثمانيهما¹⁰⁴.

ناطق عسكري إسرائيلي أعلن أن ضابطاً إسرائيلياً كبيراً وفدائيين اثنين قتلا في اشتباك بين مجموعة فدائية ودورية إسرائيلية بين مستوطنتي كفار روبين والزراعة على الجبهة الأردنية. وأوضح الناطق العسكري أن الفدائيين فتحوا نيران أسلحتهم على العربات الإسرائيلية من مسافة تبعد نحو 20 ياردة فقط (نحو 18.29 م)، وأن أربعة من شرطة حرس الحدود، وثلاثة جنود، ومستوطنين اثنين، بالإضافة إلى المصور الكندي بيتر سيمونز Peter Simmons، والمصور التلفزيوني السويدي ستيفن هولدمان أصيبوا بجروح خلال المعركة¹⁰⁵.

وأما صحيفة الجيروزاليم بوست The Jerusalem Post الإسرائيلية الناطقة باللغة الإنجليزية، فقد كتبت أن اثنين من الفدائيين قتلا إثر اشتباك وقع إلى الجنوب من

¹⁰³ عبد الله عزام، حماس: الجذور التاريخية والميثاق (بيشاور: مكتب خدمات المجاهدين، 1989)، ص 73.

¹⁰⁴ سعود أبو محفوظ وفاروق بدران، مرجع سابق، ص 31.

¹⁰⁵ لطفي العابد ونبيلة سلباق، مرجع سابق، ص 490 و676.

كفار روبين، قتل فيه أيضاً ضابط إسرائيلي برتبة مقدم يدعى ميشال قيشر، وهو من مستعمرة موتسكين Motzkin وفي الـ 29 من عمره.

وتضيف الصحيفة، أنه جرح في هذا الاشتباك عدد من شرطة حرس الحدود والجنود الإسرائيليين وصحفيان ذكرت أنهما نرويجيان شاهدا المعركة، وأن الفدائيين استعملوا في هذا الاشتباك قذائف البازوكا¹⁰⁶.

8. عملية الشهيد سيد قطب:

سميت هذه العملية بعملية سيد قطب، إذ إن صلاح حسن هو الذي خطط لها واختار لها هذا الاسم، بل إنه اختار توقيتها في اليوم الذي استشهد فيه سيد قطب نفسه، الـ 28 من آب/ أغسطس. والبعض أطلق عليها اسم عملية حطين لأنها وقعت في منطقة قريبة من أرض معركة حطين الخالدة.

كانت خسائر الاحتلال الصهيوني في هذه العملية البطولية 12 قتيلًا بينما استشهد ثلاثة مقاتلين إثر تبادل النيران مع الجيش الإسرائيلي، نقل إخوانهم بالجهاد النعوش بوداع مهيب. فصلاح حسن (أبو عمرو) لُق بالعلم المصري، وزهير سعدو (شرحبيل بن حسنة) بالعلم السوري، ومحمود البرقاوي (أبو جندل) بالعلم الأردني. وكان يوماً من أيام المسلمين في كفر الماء بإربد، وفي حماة بسورية، وفي الكويت حيث تسكن زوجة أبي عمرو¹⁰⁷.

كانت خطة العملية تتضمن مهاجمة دورية من سبع مجنزرات بدأ جيش الاحتلال بتسييرها حول مستعمرة كفار روبين عوضاً عن الدبابتين وكاسحة الألغام التي تمّ تدميرها في عملية الخامس من حزيران. وقد أعد الشهيد صلاح حسن الخطة، وأشرف على دوريات الاستطلاع، واختار الأسلحة التي سيستخدمها المجاهدون، وهي إلى جانب الأسلحة الرشاشة، 35 صاروخاً محمولاً تطلق بالكهرباء، تمّ نقلها على دفعات عبر النهر إلى منطقة الهجوم. وأخذ الشهيد ينزل بنفسه إلى منطقة سهل بيسان داخل

¹⁰⁶ عارف العارف، أوراق عارف العارف: المجموعة الخامسة (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 1974)، ص 1285.

¹⁰⁷ مصطفى الأسعد، مرجع سابق.

الأرض المحتلة، يخزن العتاد وينصب الصواريخ، ويحشد المقاتلين للعملية، وكان عددهم عشرين مجاهداً¹⁰⁸.

انتقلت المجموعة الأولى من الإخوان إلى غربي النهر تسلاً مساء الجمعة 1970/8/28، والتي كانت تضم صلاح حسن وزهير سعدو ومحمود البرقاوي ومحمود حسن، لنقل السلاح والعتاد اللازم، لأن العملية كانت كبيرة. فتم نقل القذائف الصاروخية على دفعات، وكذلك رشاش دوشكا لمنع طائرة هليكوبتر Helicopter كان يتوقع أن تهاجم المكان لمساندة الجيش الإسرائيلي، من العمل بفاعلية ومحاولة إسقاطها إن أمكن. وبعد نقل الأسلحة عبر النهر، بدأت المجموعة الفدائية بالعودة قبل أن يطلع الفجر، ويكشفهم العدو. وفي أثناء اقتراب المجاهدين الأربعة من نقطة العبور في ساعات الفجر الأولى من يوم السبت، فوجئوا بكمين من جيش الاحتلال كان قد عبر إلى الضفة الشرقية داخل الأراضي الأردنية، فتبادلوا النيران معه ودارت اشتباكات عنيفة بين الجانبين أدت إلى استشهاد الثلاثة: صلاح حسن، وزهير سعدو، ومحمود البرقاوي، بينما نجا محمود حسن¹⁰⁹.

انتقلت مجموعة من مقاتلي الإخوان المسلمين إلى المكان لإحضار جثث الشهداء لدفنها، فتعرضوا للقصف الشديد، غير أنهم تمكنوا من إحضار الجثث. ووجد الإخوان أن العدو الصهيوني قد مثل بجثث الشهداء، إذ فقئت عينا أبي عمرو، واخترقت 110 رصاصات جسمه. وكان هذا التمثيل نتيجة حقد عليه، إذ استطاع ومن معه أن يقتلوا 12 جندياً غير الجرحى بدت آثار دمائهم على الأرض¹¹⁰.

ومما يجدر ذكره أن الصحف الإسرائيلية وبيانات الناطق العسكري الإسرائيلي، قد اكتفت بالإعتراف أن جندياً إسرائيلياً في الـ 19 من عمره يدعى إيجود مائير قتل في الاشتباك دون أن تورد أي تفاصيل إضافية عن العملية الفدائية¹¹¹.

¹⁰⁸ محمد أبو فارس، مرجع سابق، ص 377.

¹⁰⁹ سعود أبو محفوظ وفاروق بدران، مرجع سابق، ص 32.

¹¹⁰ محمد أبو فارس، مرجع سابق، ص 277-278.

¹¹¹ عارف العارف، مرجع سابق، ص 1350.

يقول محمود حسن، الناجي الوحيد من المجموعة الفدائية عن العملية وقصة استشهاد رفاقه في ميدان الجهاد¹¹²:

الظلام دامس، والأصوات هادئة بل معدومة، بعدما ترك معظم السكان قراهم فهي خاوية لم تسكن من بعدهم. واخترقنا هذه القرى المهجورة وخرجنا إلى الحقول والمراعي والبساتين، والركب الصغير يغدّ السير إلى هدفه، ووصلنا بعد قرابة ساعتين من السير الحثيث إلى شاطئ النهر. وتوقفنا عن السير فترة قصيرة، نحو نصف ساعة، إلى أن ارتاحت قليلاً الأجسام المنهكة من ثقل ما حملت.

كان لساننا دائماً يلهج بالاستغفار والذكر، وكانت تخطر دائماً على أفكارنا كثير من الآيات وصيغ الاستغفار. وتدور حول أذهاننا وفي عقولنا أشرطة معينة لمواقف معينة، منها ما يضحك ومنها ما يبكي، ومنها ما يملأ النفس حماسة ومنها يئس. وهكذا أشياء لا ندري كيف تخطر على ذهن الإنسان في ثوان معدودة بدون رابط بينها؛ ولكنها تشبه شريطاً من الأخبار الخاصة تعرض على ذهنك وكأن لا شأن لك بها.

بدأنا في حذر شديد في ترتيب عبور النهر، وأخذنا وضعاً مناسباً للقتال، تحسباً لأي مفاجأة، وقامت مجموعة صغيرة بعبور النهر والتمركز في الضفة الأخرى، ثم بعد قليل بدأت المجموعة الأخرى في العبور. وهكذا إلى أن انتهينا جميعاً من العبور، ثم أخذنا نقطع النهر ذهاباً وإياباً إلى أن قمنا بنقل كل المعدات وبدأنا في الاستعداد، ولكننا شعرنا أن الوقت قد غلبنا ولم يبق على الفجر إلا القليل. ومع بعض الحسابات الخفيفة، أدركنا أنه من الصعب أن يسعفنا الوقت في عمل كل التجهيزات، فقررنا تأجيل موعد التنفيذ لليوم الثاني، وكان لا بد من العودة قبل طلوع النهار.

قمنا بعبور النهر إلى الضفة الشرقية واسترحنا قليلاً بعد أن أرسلنا أحداً لإخبار مجموعة التغطية بتأجيل العملية لليوم الثاني؛ وفي أثناء الانتظار ألح النوم على جفوننا، وكنت ضمن مجموعة كتب الله الشهادة لمعظم أفرادها.

¹¹² الشهيد صلاح حسن، ثمانون عاماً بحثاً عن مخرج، ط 4 (عمّان: دار العلوم للنشر والتوزيع، 2006)، ص 292-295.

وقعت عيني على أبي عمرو وهو يغط في نوم عميق وكأنه ينام في بيته. وظللت أنقل عيني بين رجلين: زهير سعدو وصلاح حسن، وهما يغطان في النوم وعيناوي تراقب الطريق. وما لبث أن عاد محمود البرقاوي يخبرنا بنباً التقاءه بمجموعة التغطية وإبلاغها بتأجيل العملية. وبدأنا السير في طريق العودة، لم نتكلم كثيراً.

لم نكن نعرف أن أبواب الجنة قد فتحت استعداداً لاستقبال شهداء سوف ينتقلون بعد لحظات، وأنا كلما قطعنا خطوة إلى الأمام، كلما قطعنا خطوة إلى الجنة.

ووقفت أناذي محمود البرقاوي الذي كان سريعاً في خطوه: يا محمود لا تسرع حتى لا تختفي عن أعيننا في الظلام الحالك. وللمرة الثانية حدث أن توقفنا وتكرر النداء لمحمود أن يبطئ في سيره، وبدأ محمود يبطئ فعلاً في سيره. ولكن كانت مرحلة صعود الشهداء قد بدأت، وكان أبو عمرو يسير خلفي وكذلك زهير سعدو، وانتقلت من جانب الطريق الأيمن إلى الجانب الأيسر حتى أظل ملاحقاً لمحمود في أثناء سيره.

وفجأة رأيت ناراً حامية تخرج من الأرض باتجاه محمود البرقاوي وذلك بعد قرابة 15م، وتابعت النار الحامية وهي تصيب محموداً وأدركت في الحال أن محموداً كان أول الصاعدين. وهوى الجسد الطاهر على الأرض، وصعدت الروح الكريمة إلى بارئها... هوت المادة إلى المادة أصلها، وصعد السر الذي هو من علم ربه إلى خالقه. وظلت المدافع تقصف في اتجاه محمود قصفاً عنيفاً متواصلًا. وأخذنا وضع الاستعداد للالتحام، ولم يخطر ببالنا أن إخلاء الأهالي لقراهم يمكن أن يغري اليهود بالتعمق إلى هذا الحد داخل أرض الضفة الشرقية، وكأنها بدون صاحب.

فصحت بأعلى صوتي: انتبه... ماذا تفعل؟ وذلك ظناً مني أنها مجموعة من الفدائيين حسبنا يهوداً ففتحت نيرانها علينا؛ ولكن بضع كلمات عبرية بلغت آذاننا جعلتنا ندرك الوضع تماماً، إنه كمين يهودي وإنه لا يقل عن فصيلة كاملة.

ولكن من أدرى اليهود أننا سوف نعود من هذا الطريق؟ هل هي إخبارية من بعض عيونهم؟ هل المسألة صدفة؟ لا نستطيع الجزم وإن كانت الشواهد تنبئ أن لليهود في هذه المنطقة بعض العيون التي تنبئهم بالتحركات في المنطقة.

ظللت نحو ثلاث دقائق وأنا أراقب الموقف للتصرف حسب التقدير السليم. نظرت خلفي نظرة خاطفة فوجدت أبا عمرو قد جلس القرفصاء وأخذ وضع الاستعداد. ولم نحاول الالتحام أو الرد حتى نخفي مواقعنا، ونخفي أيضاً عدونا بفضل الظلام الدامس، وظل اليهود يضربون على غير هدى. وقررنا الانتقال من أماكننا إلى أماكن أكثر أمناً. ومع الانتقال، بدأت القنابل اليهودية تنهال علينا.

كل هذا ونحن ساكنون تماماً، ثم بدأ اليهود إرسال طلقات كاشفة من مدافع هاون لمحاولة معرفة مكاننا، وفي أثناء انتقال أبي عمرو وزهير سعدو من مكان إلى مكان أصيب أحدهما في قدمه، ووقف الآخر لمساعدته وظلا في أماكنهما، إلى أن أراد اليهود أن يأخذوهما، فأمسك كل منهما بسلاحه، وكانت مواجهة عنيفة بين المجاهدين وبين اليهود.

لم تكن العمليات السابقة هي الحصاد الوحيد لما نفذه الإخوان المسلمون خلال جهادهم في إطار قواعد الشيوخ، بل هناك العشرات من عمليات القنص والاشتباك التي أوردتها ممن وثقنا شهاداتهم، غير أن الذاكرة لم تسعفهم لإيراد تواريخ حدوثها والأشخاص المشاركين فيها. ومنها، شهادة القائد أحمد أبو سعد الذي قال بأن فوزي أبو الخير نزل في إحدى العمليات بمفرده وحفر خندقاً تحت شجرة إلى جانب النهر، حين قدمت سيارة جيب مكشوفة للجيش الإسرائيلي قنص سائقها ثم الضابط وجنديان، فأرداهم بأربع رصاصات، حيث كان ماهراً بالقنص.¹¹³

ويضيف مدحت أبو الفضل، وهو محام كبير من إخوان مصر ترك رغد العيش في الكويت وحضر للجهاد في قواعد الشيوخ:

¹¹³ أحمد أبو سعد، مقابلة شخصية، 2010/1/9.

كنا بعد صلاة الفجر نذهب إلى المزارع الواقعة على ضفة النهر لنختبئ بين أشجارها ومعنا بندقية قنص، وكنا نعرف ما إذا كان الجندي الذي جرى قنصه أصيب أم لا من صوته، فإن علا صوته بالصراخ أدركنا أنه أصيب، وإلا فإنها طلقة طائشة. وكان يعقب كل عملية قنص إطلاق نار كثيف من رشاشات العدو تسمح أشجار المنطقة مسحاً¹¹⁴.

ويجدر بنا أن نوثق أن صلاح حسن كان يخطط لاغتيال وزير الدفاع الإسرائيلي موشيه دايان، عبر تنفيذ عملية قوية تستدرج دايان لزيارة موقع العملية، فيهاجمه كمين ثانٍ ينتظره في المكان نفسه¹¹⁵. كذلك حاول الإخوان في العقبة بقيادة صلاح أبو ميزر ضرب مدينة إيلات بالصواريخ، أول مرة بأربعة صواريخ غير أن اثنين منها لم تشتعل؛ وفي المرة الثانية نجحوا بإطلاق 24 صاروخاً¹¹⁶. كما يؤكد أحمد أبو طالب أن صلاح حسن كان يخطط لاستهداف مفاعل ديمونا Negev Nuclear Research Center (NNRC) في منطقة بئر السبع، وأنه قطع شوطاً كبيراً في التخطيط والاستطلاع للعملية، دون أن يذكر أي تفاصيل أخرى¹¹⁷.

خامساً: تجربة إسلامية متميزة:

انتشرت معسكرات التدريب وقواعد القتال للإخوان المسلمين حول القرى النائية في منطقة إربد وأحراشها، وعلى خط وقف إطلاق النار في غور الأردن، وتشكلت علاقة أخوية بين مقاتلي الإخوان وأهل هذه القرى الذين ما يزالون يذكرون التشابك الذي حصل، بكل صدق وأريحية، حيث ابتعد الإخوان عن عملية كانت منتشرة في بعض التنظيمات الفدائية، وهي جمع التبرعات من السكان، وفرض الوصاية والखाوات عليهم.

¹¹⁴ مدحت أبو فاضل، قصتي مع الجماعة وقصتهم مع العسكر (القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، 2013). الطبعة الإلكترونية نقلاً عن مركز الدراسات التاريخية للإخوان المسلمين.

¹¹⁵ إبراهيم غرايبة، جماعة الإخوان المسلمين في الأردن: 1946-1996، ص 14.

¹¹⁶ وصفي الجهني، مقابلة شخصية أجراها د. علي العتوم، العقبة، 1992/1/15.

¹¹⁷ أحمد أبو طالب، مقابلة شخصية، 2010/4/7.

واستطاع الإخوان من خلال برامجهم التربوية والشرعية أن يثيروا في النفوس الحمية والاندفاع للالتحاق بركب الجهاد، ومن خلال الابتعاد عن المزاوَدات الفكرية والسياسية والحرب الكلامية أن يستقطبوا أبناء القرى القريبة من معسكراتهم وقواعدهم، ومن خلال قوة انضباطهم وبنائهم السياسي والتنظيمي وفعاليتهم العسكرية أن يبنوا علاقاتهم مع الجيش الأردني على أسس سليمة، ليس هناك إساءة استعمال للسلاح، ولا انجرار وراء المظاهر العسكرية، ولا اعتداء على المواطن أو العسكري.

وصف عبد الله عزام علاقة الفدائيين الإخوان بالجيش الأردني بقوله: "كان الجيش الأردني خير متعاون معنا، إذ إننا صدقناه فصدقنا، وعاملناه بالرجولة الإسلامية فعاملنا بالمرءة والنخوة البدوية". وهذا الكلام لم يكن من فراغ، بل إن عبد الله عزام يسرد قصة حقيقية من واقع ما شاهده خلال معركة أو عملية مشروع روتبرغ التي شارك فيها، وأصيب خلالها أبو مصعب السوري بجراح بالغة. فما كان من قائد الكتيبة الأردني إلا أن اقتحم النيران الملتهبة من جراء القصف الصهيوني الذي كان منصباً باتجاه أبو مصعب. وقد أصيب الضابط الأردني الكبير بشظية، غير أنه تمكن من انقاذ المجاهد الجريح الذي كاد أن يشرف على الموت، وأوصله إلى المستشفى بسيارته العسكرية¹¹⁸.

أما إبراهيم المشوخي، فإنه يقول: "كانت علاقتنا بالجيش علاقة أخوية يساعدوننا في أداء العمليات أحياناً، ونساعدهم حين يقع أي احتكاك، أو احتمال وجود احتكاك، حيث كنا نرافق من يريد المرور الاضطراري من جهة فيها منظمات أخرى. وكان الجيش يرى أننا نختلف عن غيرنا خلقاً وسلوكاً وتديناً، ولهذا كان كافة الرتب يكونون لنا الاحترام والتقدير"¹¹⁹.

حدد الإخوان المسلمون رؤية سياسية واضحة وشاملة استندت إلى غايات وأهداف القتال في سبيل الله، ومن هو عدوهم في هذه الساحة؟ ومن هو صديقهم الذي يزيد من قوتهم؟ وقد عكست هذه الرؤية نفسها على طبيعة المقاتلين في هذه القواعد، وعلاقتهم بالمجتمع المحيط بهم، فابتعدوا عن الأخطاء في الممارسات التي سادت في صفوف فصائل المقاومة قبل فتنة أيلول 1970.

¹¹⁸ عبد الله عزام، حماس: الجذور التاريخية والميثاق، ص 73.

¹¹⁹ بسام العموش، مرجع سابق، ص 70-71.

ويمكننا أن نشير إلى العديد من الأمثلة على تلك الممارسات الخاطئة: القيادة المكتبية، البيروقراطية، والترف والإسراف، والضجيج الإعلامي الفارغ، والأخطاء السياسية، والتعصبات الحزبية التي عكست نفسها على الوحدة الوطنية، وإساءة استعمال السلاح، وضعف التدريب، والانجرار وراء المظاهر العسكرية، وأساليب القتال الخاطئة، وكل صورة الميليشيا، والكسل في القواعد، وإضاعة الأوقات للمقاتلين سدى، والفدائي الذي يسيء للمواطن ويعتدي على زرع، أو يهين دينه وتقاليده، إلى آخر ما كان من أمراض حالت دون أن تقوم علاقة المقاومة مع محيطها الجماهيري على أساس سليم¹²⁰.

ومن أجل إخماد الفتنة، وعدم وقوع الفوضى في المدن، والتحريشات بالسلاح، كان المسؤولون في قواعد الإخوان المسلمين يمنعون عناصرهم في أثناء الإجازات من حمل السلاح، بل يبقى سلاح الأخ المجاهد في أثناء الإجازة في القاعدة. كما لم تسمح قيادة الإخوان المسلمين لمجاهديها بإقامة قواعد لهم داخل المدن، إذ كانت قواعدهم موزعة على الجبال وبعيدة عن مواقع المواطنين، وعن أرضهم الصالحة للمزروعات¹²¹.

أحد كتّاب مجلة الأقصى، لسان حال الجيش الأردني، كتب مقالاً بعنوان "فدائيان"، ويعني بالفدائي الأول أحد مجاهدي قواعد الشيوخ، والفدائي الثاني أحد عناصر المنظمات الأخرى. ومما جاء في المقال المذكور:

الفدائي الأول صعد المنبر يحمل سلاحه، فخطب في المصلين وذكرهم بدينهم وأوطانهم، ومجاهدة عدوهم المحتل لمقدساتهم، ثم غادر المسجد إلى قاعدته وعليه الوقار والسكينة، لا يتناول على أحد ولا يصخب على أحد. والفدائي الثاني، شاهده في حفلة عرس يحمل سلاحه أيضاً، وكلما أطلقت امرأة من فمها زغرودة أطلق الفدائي من سلاحه صلية، أي عدداً من الرصاص¹²².

¹²⁰ نبيل شعث (إشراف)، المقاومة الفلسطينية والنظام الأردني: دراسة تحليلية لهجمة أيلول (بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية - مركز الأبحاث، 1971)، ص 345.

¹²¹ جنان فهد، الشيخ ذيب أنيس يروي شريط ذكرياته ويكشف خفايا وأسرار حياته، السبيل، 2000/4/18، ص 8.

¹²² المرجع نفسه، ص 9.

الغايات والأهداف:

لا بدّ من وضوح الغايات والأهداف لدى المقاتل المسلم، فالغاية من القتال عند المسلم طاعة الله تعالى وتنفيذ أمره سبحانه، وليس استعباد الناس أو إزلالهم، وقد أوجب الله القتال على المسلم من أجل ردّ عدوان الآخرين ومقاومتهم. وأوجب الله تعالى كذلك القتال على المسلمين في حال وقوع طائفة من المسلمين تحت وطأة الكافرين، يسومون المسلمين سوء العذاب، ويفتنونهم عن دينهم.

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾¹²³. ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾¹²⁴. ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾¹²⁵.

ذكر الله تعالى في أثناء الزحف ومواجهة العدو على أرض المعركة من أسباب النصر وتحقيق الفلاح للمجاهدين، فقد جاء في الآية الكريمة من سورة الأنفال قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (45) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (46)¹²⁶.

وقد حققت عملية الأرض الطيبة، على سبيل المثال، الأهداف المطلوبة، وأوقعت في العدو خسائر كبيرة في الجنود والمواقع والسلاح. وفي تفاصيل العملية، تتحقق أيضاً ما أوردناه من آثار لذكر الله تعالى في أثناء الجهاد.

إن يقول أحد قادة الإخوان المسلمين الذين شاركوا في الاستطلاع ثم الهجوم:

قمت ومجاهد آخر من شباب الإخوان المسلمين بين يدي عملية الأرض الطيبة باستطلاع الأهداف التي ننوي ضربها؛ وهي مواقع دبابات ومدفعية وثكنات لجنود العدو اليهودي في بلدة الحمة السورية على ضفاف نهر اليرموك، على السفح الجنوبي لهضبة الجولان، مقابل قرية أم قيس الأردنية. وبعد عملية الاستطلاع وتسجيل الأهداف في القرية المذكورة، تبين لنا أن الأهداف كثيرة

¹²³ القرآن الكريم، سورة النساء، آية 76.

¹²⁴ القرآن الكريم، سورة البقرة، آية 190.

¹²⁵ القرآن الكريم، سورة النساء، آية 75.

¹²⁶ القرآن الكريم، سورة الأنفال، آية 45-46.

وتستحق عدداً كبيراً من المقاتلين، فتم التنسيق بين مقاتلي الإخوان المسلمين ومقاتلي حركة فتح وكان عدد المقاتلين يزيد عن السبعين مقاتلاً¹²⁷.

وعندما وصلت مجموعات المقاتلين قريباً من الهدف المطلوب، وكان الوقت بين المغرب والعشاء، وقف أحد مجاهدي الإخوان المسلمين وألقى كلمة طيبة، ذكرهم فيها بقرب المعركة ولا يعلم إلا الله تعالى من يُقتل منا في المعركة، أو ينجو. وطلب من المقاتلين أن يتوبوا إلى الله تعالى توبة نصوحاً. وكان التجمع على عين ماء تبعد عن الهدف كيلومتر، وطلب الأخ المسلم من إخوته المقاتلين الاستعداد للصلاة، وذكرهم بجمع صلاة العشاء جمع تقديم مع المغرب، وكان في صفوف مقاتلي فتح عدد غير قليل لا يصلون، فاستجاب الجميع، وتوجهوا إلى عين الماء، منهم من توضأ من الحدث الأصغر، ومنهم من تطهر من الجنابة، وأقيمت الصلاة جماعة، يؤمهم أحد قادة الإخوان جمعاً وقصراً، ثم توجه الجميع نحو الهدف، فأخذ بعض المقاتلين ينادي من حوله أن كفوا عن كلام الدنيا، وأكثروا من ذكر الله تعالى، ففعل الله تعالى يكتب لنا الشهادة في هذه الليلة. وعندما بدأت المعركة مع العدو المحتل، اختار الله تعالى أحد عناصر فتح شهيداً، ولقد سألنا أحد شباب حركة فتح عن هذا الشهيد واسمه محمود: هل كان يصلي؟ فأجاب: إن محمود لم يصل في حياته إلا هذه الصلاة، بفضل الله تعالى ثم بسبب وجودكم معنا يا شباب الإخوان¹²⁸.

جهاد ودعوة لله تعالى:

الشيخ عبد العزيز جبر، وهو من قادة الإخوان المسلمين في الأردن، وكان وقتها مديراً لكلية الحسين الثانوية، وعمره 37 عاماً، ويعيل أسرة كبيرة، ومع ذلك استعد للتفرغ للجهاد، فكان يزور قواعد الشيوخ ويبعث مع المجاهدين، ولكن قيادة الإخوان فضلت أن يبقى في عمله التربوي. يقول عبد العزيز جبر في شهادته: "كنت على صلة مع إخواننا الذين كانوا في القواعد، وزرت الدكتور أحمد نوفل في قاعدة الرفيد في محافظة إربد. وجاء يوم الجمعة، وكان مسجد البلد قديماً ومهجوراً، لا يصلى فيه الجمعة، فذهبنا وصلينا فيه. وقد انتدبني الإخوان في إحدى المرات لأن أخطب الجمعة"¹²⁹.

¹²⁷ ذكر أحمد أبو سعد أن العدد المقدر كان في البداية كبيراً ولكن العدد النهائي المشارك كان بحدود العشرين شخصاً. انظر ص 95-96 من هذا الكتاب.

¹²⁸ جلنار فهمي، مرجع سابق، ص 9.

¹²⁹ عبد العزيز جبر، مقابلة شخصية، 2001/4/20.

ويتابع الشيخ ذيب أنيس مؤكداً هذه الرواية، فيقول:

كان جهاد شباب الإخوان المسلمين في عام 1968 حتى 1970 جهاداً لقتال العدو اليهودي [الصهيوني]، وفي نفس الوقت دعوة إلى الله تعالى، ولم يكن التدريب العسكري الشاق للأفراد في معسكراتهم الخلفية أو قواعدهم المتقدمة يشغلهم عن تربية أبناء المسلمين القريبين من معسكراتهم وقواعدهم الفدائية، ولم تكن برامج العمليات القتالية والهجومية على مواقع الجيش اليهودي في فلسطين تحتاج إلى جميع أفراد القاعدة في أغلب الأحيان، فكانت مهمة الأفراد الذين لم يشاركوا في دورات القتال أنهم يبقون في القواعد ويقومون بوضع برامج تربوية لأبناء المسلمين في القرية القريبة من القاعدة، ويجمعون طلاب المدارس ويعلمونهم كتاب الله تعالى والسنة النبوية، قراءة وحفظاً وتطبيقاً، وكان شباب الإخوان يمارسون هذا النشاط عن طريق تقسيم الطلاب إلى مجموعات حسب أعمارهم ومستوياتهم، وتعطى كل مجموعة من البرامج ما يناسب قدراتها. وكان مسؤول القاعدة يقوم يوم الجمعة بتوزيع الإخوان في القاعدة القادرين على التدريس والخطابة على المساجد المجاورة، يقدم الأخ للمصلين في المسجد الدرس والخطبة، يحض المصلين على التمسك بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ، والجهاد في سبيل الله تعالى والعودة إلى ما كان عليه السلف الصالح، أصحاب الرسول ﷺ والتابعين بإحسان. وكان الأخ المجاهد من مجاهدي الإخوان المسلمين يلقي خطبة الجمعة وهو يحمل سلاحه الذي يقاتل فيه العدو المحتل، وبعد أداء الخطبة وصلاة الجمعة يغادر المسجد ويتوارى دون أن يعرفه أحد، أو يؤذي أحداً¹³⁰.

كما يتحدث ذيب أنيس عن دور الدعاة من الإخوان المسلمين في أثناء الجهاد، فيقول أيضاً:

وما زلت أذكر قرية اسمها الرفيد من قرى إربد على نهر اليرموك، وصلناها ليلاً على إثر اكتشاف الطيران اليهودي لمكان قاعدة من قواعدها، وأقمنا في الرفيد قاعدة جديدة. وفي الصباح حضر إلينا أهل القرية، فرحبوا بنا أجمل ترحيب لما عرفوا أننا من الإخوان المسلمين. فسألناهم: هل يوجد مسجد في هذه البلدة؟ فأجابوا: بنعم، ولكنه مسجد مغلق منذ زمن طويل ولا يصلي فيه

¹³⁰ جلنار فهيم، مرجع سابق، ص 9.

أحد، فطلبنا منهم الذهاب إلى المسجد. ولما وصلنا إليه وجدناه مهجوراً تماماً، وبصعوبة شاقة استطعنا فتح باب المسجد، فوجدنا الأتربة والحشائش اليابسة تملأ أرض المسجد. فطلبت من إخواني مجاهدي الإخوان أن يجمعوا لي حطباً داخل المسجد، وأوقدنا النار داخل المسجد لمدة ثلاث ساعات، حتى تموت الهوام والحشرات الضارة، وبعدها قمنا بكنس الرمد والأتربة خارج المسجد، وأتينا بمواد الدهان لجدران المسجد وبالإسمنت لصب أرضية المسجد، وكان هذا مساء يوم الخميس. وفي اليوم التالي يوم الجمعة انتدبت أحد المجاهدين نديّ الصوت ليصعد على سطح المسجد ويسمع سكان القرية تسبيحات يشعر بها أهل القرية بصلاة الجمعة، ولما دخل وقت صلاة الجمعة، ألقى خطبة الجمعة وضمنتها الحث على صلاة الجمعة والجماعة والاهتمام ببيوت الله تعالى، وأخذنا نتعهد القرية ومسجدها بالزيارات، حتى أصبح المسجد لا يتسع للمصلين بفضل الله تعالى¹³¹.

ومثل هذا التعامل الدعوي والأخلاقي وقع في معسكر التدريب الذي أقامه الإخوان المسلمين قرب قرية الأزرق (أزرق الشيشان)، فقد أقام مجاهدو الإخوان في مسجد الأزرق الدروس الدينية وخطب الجمعة. وزيادة على هذا، أن سيارات مجاهدي الإخوان كانت تحمل طلاب قرية الأزرق الشيشان إلى المدارس في الصباح، وتعيدهم إلى بيوتهم في المساء، حيث كانت المدارس بعيدة عن موقع القرية¹³².

تعاون وثقة متبادلة:

لم يكتفِ المجاهدون من الإخوان المسلمين بإقامة الصلاة في المساجد وإلقاء الدروس والخطب أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتعليم الأطفال والفتية في القرى القريبة من قواعدهم الوضوء والصلاة، بل إن انضمام أبناء تلك القرى إلى صفوف الدعوة، واندماجهم في برامج التدريب المختلفة حسب أعمارهم يدل على مرحلة متقدمة من الثقة المتبادلة بين الطرفين، إذ لاحظ الأهالي السلوك والخلق الإسلامي لدى الإخوان.

¹³¹ المرجع نفسه.

¹³² المرجع نفسه.

وليس هذا فحسب، فقد أخذ العديد من أبناء تلك القرى يحملون بكل جدّ واهتمام الإسلام كما يحمله الإخوان، ويدعون إليه كما يدعو الإخوان، ويهتفون كما يهتف الشباب المجاهدون: ”الله غايتنا، والرسول قدوتنا، والجهاد سبيلنا، والموت في سبيل الله أسمى أمانينا، الله أكبر والإيمان قوتنا، الله أكبر والأخوة شعارنا، الله أكبر شعارنا سيفان، سيف على الاستعمار، وسيف على الصهيونية“. وكل ذلك، لأن سكان تلك القرى شعروا بمحبة الإخوان لهم ولأولادهم، وحرصهم على مصالحهم الدينية والدنيوية¹³³.

استطاع الفدائيون الإخوان بناء جسور من العلاقات المتينة مع أهالي الكفارات (الرفيد وحرثا)، فكانت زيارات الإخوان إلى الدواوين، حيث يقوم قادة الحركة الإسلامية وخطبائها بإلقاء الدروس والمواظ والحث على الأخلاق الحميدة. وقد ذكر الإخوان المشاركون في قواعد الشيوخ ذلك في مذكراتهم وكتاباتهم المختلفة.

ومن هذه المذكرات، نقتبس مما دونه العالم الشهيد عبد الله عزام، حيث كتب¹³⁴:

وكان بيننا وبين الأهالي صلة وثيقة ومحبة عميقة، خاصة الذين كانت قواعدا في أكنافهم، وأخص بالذكر آل عبيدات في الرفيد وحرثا. ولقد احتضنونا كأننا أبناءهم ويودون لو يضعوننا في أجفانهم وقلوبهم، ولقد وقفوا وقفة طيبة عندما دخل الجيش الأردني لضرب قواعدا، فقالوا: نحورنا دون المس بهم وصدورنا دون إيذائهم، عرفناهم لأبنائنا معلمين ولمساجدنا أئمة وخطباء، ولقرانا ولمزارعنا حراساً أمناء.

وتابع الشهيد في مذكراته:

والحق أن ذكر الرفيد لا يمكن أن يأتي النسيان عليه، والله أعلم، ما دام لنا عين تطرف أو قلب ينبض. ولقد كان أحد أبنائهم، أحمد عبيدات، قد عرفنا من خلال حديث أهله وقريته وعشيرته عنا، فأحبنا عن بعد، ثم ارتقى مناصب عليا في الدولة حتى تسلم رئاسة الوزراء، فكان خير مدافع عنا إذا كثرت الأقاويل أو اشتدت علينا الحملات.

¹³³ سعود أبو محفوظ وفاروق بدران، مرجع سابق، ص 27-28.

¹³⁴ محمد عبد الله العامر، الشيخ المجاهد عبد الله عزام الذي ترجم الأقوال إلى أفعال (الكويت: دار البيان للطباعة والنشر والتوزيع، 1990)، ص 43.

كما حرص الإخوان في معسكر التدريب القريب من قرية العالوك على عدم المس بمزارع العدس والكرسنة العائدة للأهالي، وكذلك أشجار الزيتون، لا بل، قدم الأهالي الطعام للإخوان الذين شاركوا المزارعين في جني محصولي العدس والكرسنة، ومنهم صاحب إحدى المزارع، أحضر اللبن والشنية (لبن عيران) التي كان المقاتلون بمسيس الحاجة إليها.

وكان من مظاهر التعاون بين المقاتل والفلاح في القرى المحيطة بقواعد الشيوخ، ما حدث في قاعدة غزة في أثناء فتنة أيلول، حين انقطع التموين عن القاعدة نتيجة تعرضها للحصار العسكري الشديد. فما كان من أهالي قرية الرفيد إلا أن تولوا بأنفسهم تزويد من تبقى من المقاتلين بالقاعدة بما يحتاجونه من غذاء وماء طيلة فترة الحصار. ووقف أهالي القرية سداً أمام مدرعات ودبابات اللواء الأربعين الذي كان يحاول اقتحام القاعدة وتصفيتها، ومنعوا الجيش من إطلاق النار على القاعدة¹³⁵.

يسرد عبد الله عزام هذه الأحداث في مذكراته:

عندما دخلوا إلى القاعدة الرئيسية عندنا، خرج أهل القرية أمام الدبابات وقالوا: هؤلاء علمونا ديننا، حموا أراضنا، ضربهم ضرب لنا، فقال لهم قائد الدبابات: لن أمسهم بسوء، فعلاً اعتقلوا اثنين من إخواننا، وأرجعهم بعد يومين معززين مكرمين، لأن الجيش عندما رأونا نصلي ما يصدق هذا فدائي، كانوا يقولون لأحدنا: أنت فدائي تصلي، مش معقول، نعم مش معقول أنت فدائي؟ وقف اللواء خلف رافع أمام ضباط الجيش جميعاً وأمام الملك، وقال له: اسمع يا جلالة الملك، إذا أردتم أن تضربوا الفدائيين، فلا تضربوا الإخوان المسلمين، هؤلاء أناس طيبين¹³⁶.

انضباط واحترام:

أي عمل بدون انضباط يسبب المتاعب والمآسي، فما بال قواعد وسلاح وسط أعاصير هوجاء. وهذه الحقيقة فهمها الإخوان قيادة ومقاتلين، فكان الجميع يفهم معنى الانضباط وتبعيات حمل السلاح ولبس الكاكي والمبرقع. ولعل وضوح الغايات

¹³⁵ أحمد أبو سعد، مقابلة شخصية، 2010/1/9.

¹³⁶ عبد الله عزام، حماس: الجذور التاريخية والميثاق، ص 73.

والأهداف لدى المقاتل المسلم، وتفهمه لطبيعة المعركة، ساعد الإخوان في تبوء المكانة التي وصل إليها مقاتلوهم في القواعد.

ومن هنا، كانت علاقتهم بالجيش العربي الأردني تمتاز بالاحترام المتبادل، وكانت التسهيلات التي يحصل عليها مقاتلو الإخوان أكثر من أن تحصى، بل كان الضباط يسهلون للإخوان وصولهم إلى ميدان القتال. وكثيراً ما غطى ضباط الجيش هجوم الإخوان أو انسحابهم بالمدفعية من شرقي النهر. وكلما كان يحدث احتكاك بين المنظمات الفلسطينية والجيش، كان الإخوان يقومون بمهمة الوساطة، وتقريب وجهات النظر بين الطرفين¹³⁷.

ومن صور العلاقة الحسنة مع القوات الأردنية، يضيف الشيخ نظمي حجة: ”نزلت مع ثلاثة من إخواني في دورية استطلاع نريد استكشاف المناطق المحتلة سنة 1948 لرصد حركة قوات الاحتلال الإسرائيلي، وكان لا بدّ أن نستأذن من الكمائن المتقدمة للجيش الأردني. وبالفعل، رحب بنا قائد الكتيبة الأردنية في المنطقة، وسمح لنا أن نبيت تلك الليلة في خنادقهم الثلاث“¹³⁸.

ويقول عبد الله عزام في مذكراته: ”وبقيت مجموعات الشيوخ تشق طريقها بين الأعاصير الهوجاء التي تريد أن تقتلها من جذورها، ونحن نقيم علائق طيبة مع الجيش الأردني الذي كان يحترمنا أيما احترام، حتى كان قائد اللواء المسؤول عن حراسة الغور خلف رافع يوقف سيارته إذا رأى شاباً من شبابنا“¹³⁹.

والحقيقة التي خرج بها الإخوان أن النجاح يجر النجاح، وأن الالتحام مع الأهالي والجيش وسائر القواعد الفدائية الأخرى فاق تصوراتهم. فقد انتشر صيتهم في المنطقة واستلموا، بحكم إيمانهم وإخلاصهم لله، وتجردهم للعمل في سبيله، واندفاعهم إلى الموت، مسؤولية كثير من العمليات التي شاركوا فيها. فكانت قيادة فتح تحرص على تشكيل الأفراد الذين يقومون بالعمليات الفدائية الكبيرة والمؤثرة، وكانت تحرص على وجود عناصر من الإخوان في أيّ عملية، ولهذا استطاع الإخوان أن يجندوا معهم عدد من مقاتلي المنظمات الأخرى. ومن أمثلة ذلك، أن استخبارات فتح نقلت إليهم أحد

¹³⁷ ذيب أنيس، مقابلة شخصية، 2008/10/4.

¹³⁸ نظمي حجة، مقابلة شخصية، عمّان، 2013/11/27.

¹³⁹ محمد عبد الله العامر، مرجع سابق، ص 43.

عناصرها، ليقوم برصد حركاتهم ونقل أسرارهم. ولكن، بعد أن أمضى هذا العنصر مع الإخوان فترة من الوقت، أباح لهم بسرهم، وأدى الصلاة معهم، ورفض العودة إلى قاعدته¹⁴⁰.

القوة والمسؤولية:

لعل القضية الأهم بالنسبة لتجربة الإخوان المسلمين في قواعد الشيوخ، هي علاقة المقاتلين ببعضهم البعض، وعلاقتهم بمدربيهم وقيادتهم. حيث قدم الإخوان المسلمين نماذج يحتذى بها في الصدق والإخلاص والتضحية وتحمل المسؤولية. ونبدأ بفريق التدريب الإخواني: صلاح حسن وعبد العزيز علي ومحمود حسن وإبراهيم عاشور، والذين قال عبد الله عزام عنهم: "كان القائد الشهيد صلاح حسن يربينا بعمله دون قوله؛ وكان أخوه أبو خليل يعتبرنا أخوة له ولسنا تلاميذ؛ وكان قائدنا العام عبد العزيز علي له في قلوبنا هيبة وأيما هيبة، وحباً ومودة لا نظير لها"¹⁴¹.

تحمل عبد العزيز علي (أبو أسامة) مسؤولية الشباب الذين دربهم وأرسلهم للقواعد، وعرض حياته للخطر حين تجاوز أحد قادة حركة فتح المبادئ والاتفاق الذي وافق الإخوان بموجبه على العمل في ظل فتح وباسم جناحها العسكري. فقد حاصر مقاتلون من حركة فتح قاعدة للإخوان المسلمين، وطلبوا من مقاتلي الإخوان إلقاء السلاح، ثم جمعوهم، وقاموا بنقل عشرة منهم عن طريق البر إلى لبنان. اتصل أبو أسامة بمحمد كمال القزاز حين علم بما حدث للشبان العشرة، واتفقا على وضع حدٍّ للتسيب وظاهرة الفتان التي بدت من بعض قيادات فتح، وخرقها للاتفاق مع الإخوان الذي قامت على أساسه قواعد الشيوخ. وعلى الأثر، غادر أبو أسامة إلى لبنان بعد أن حصل على تصريح من قائد القطاع الشمالي بقوات العاصفة ورسالة إلى أبو علي إياد تنصحه بأن يتعامل مع هذا الأمر بهدوء. وبالفعل، عاد أبو أسامة برفقة الشبان العشرة إلى إربد بعد قضاء ذلك اليوم في معسكر أبو علي إياد. وهكذا استطاع أبو أسامة أن يقف في وجه ذوبان مقاتلي الإخوان داخل حركة فتح¹⁴².

¹⁴⁰ سعود أبو محفوظ وفاروق بدران، مرجع سابق، ص 29.

¹⁴¹ عبد الله عزام، حماس: الجذور التاريخية والميثاق، ص 72.

¹⁴² عبد العزيز علي، مقابلة شخصية، 1997/7/30.

أما كيف تصرف قائد قاعدة بيت المقدس عبد الله عزام مع أهله عندما قرر التفرغ للجهاد، فهو يعد من الأمثلة على إخلاص القادة الإخوان وتحملهم للمسؤولية بصدق وأمانة، إذ تقول زوجته أم محمد في روايتها¹⁴³:

عندما عزم على الالتحاق بكتائب الإخوان، كان يفكر كيف يخبرنا بالخبر. فقد عزم على إخفاء الأمر عن أهله وعائلته حتى لا تتسرب الأخبار إلى الضفة الغربية، ويقوم اليهود بنسف بيوتهم وتدميرها، وقد يتعرض أشقاؤه للسجن والتعذيب من قبل اليهود. وكان يخشى أن يقابل أهله هذا الأمر بالرفض، لأن عبادة الجهاد كانت غائبة عن الناس، فكان الناس يظنون أن الجهاد مقتصر على العاطلين عن العمل، أما المتعلمين وأصحاب المناصب، والذين لديهم الوظائف فهم محرومون من الجهاد فلا يذهبون إلى الجهاد ما دام عندهم مورد رزق.

أما بالنسبة لي، فكان يفكر كيف يخبرني أنه عازم على الالتحاق بالمجاهدين، فجاءني في يوم من الأيام، وقال لي: لو قلت لك بأنني أريد أن أترك عملي وأذهب إلى الجهاد، فماذا تقولين؟ فأجبت: والله لا أقف في وجهك وأصدق عن سبيل الله، فإن كفلتني مادياً وأولادي وتركتني بأمان فإله معك ولن أكون عثرة في طريقك فالأعمار بيد الله. فقال لي: إنني أتكلم جاداً ولست مازحاً. قلت: وأنا كذلك. فرد علي: جزاك الله خيراً، والله إن هذا اليوم لهو أسعد يوم في حياتي، ولن أنسى لك هذا الموقف ما حييت.

وكان كذلك، فاستقال من عمله، وقال لي: أعدّي نفسك خلال يومين، نحن سنرحل، وهذه أمانة في عنقك، وهذا سرّ عندك، وأرجو ألا تفشي به حيث إنني أريد أن أنقلك بجانب بيت ابن عمك في جرش حيث تكوني بعيدة عن عيون أهلي حتى أستطيع أن آتي لزيارتكم في إجازتي دون أن يراني أحد، لأنني أريد أن أعلن لعائلتي أنني مسافر إلى مصر، وكان في نيته مصر من الأمصار، كي أتابع دراستي هناك حتى لا تتسرب الأخبار. فوفيت له، ولم أتكلم لأحد عن وجهته وتركني حاملاً في نهاية شهري الثامن في ولدي محمد، ولا أملك ما يكفيني قوت أسبوع. وقال لي: أنا مسافر، وسيأتيك إن شاء الله في كل شهر ما يكفيك. فقلت له: سهّل الله طريقك.

¹⁴³ لقاء مع زوجة الشهيد عبد الله عزام، صحيفة الشرق الأوسط، لندن، 1989/11/27، ص 3.

طلب مني بعد أربعة أشهر، أن أنتقل إلى الزرقاء لأسكن مع أخت من الأخوات تلبية لرغبة زوجها المجاهد مثله، كي أعيش معها وأصبرها، لأنها غاضبة من زوجها وذلك بسبب تركه لوظيفته وانطلاقه للجهاد في سبيل الله. فقلت: ما دام في ذلك أجر لتثبيت هذه الأخت والإصلاح بينها وبين زوجها فلا مانع عندي ما دام في سبيل الله. فأخذني وبصحبتي ما أملك من متاع الدنيا القليل، وذهبنا وسكننا في حجرة طينية طولها أربعة أمتار وعرضها مترين ونصف فكنت عندما أنام لا تسعني وأولادي الثلاثة معاً. فكنت أنام تحت أقدامهم وعندما أستيقظ كي أصلي أضطر لرفع فراشي أولاً لأجد مكاناً للوضوء والصلاة. وكنت في هذه الغرفة أقوم بغسل الملابس وأطبخ وأنام واستقبل ضيوفي من النساء.

وكنت والله أشعر بسعادة تضيء على قلبي وعلى نفسي لا يعلمها إلا الله. وأستشعر رضى الله وأنظر إلى الدنيا نظرة استخفاف واحتقار. وكان الشيخ دائماً ينظر إلي نظرة عطف ويشعر بأنه أثقل علي لأنه ضيق علي بالسكن في هذه الغرفة من ناحية، وأنه كان يعطيني 14 ديناراً شهرياً مصروفاً لي ولثلاثة أطفال من ناحية أخرى. وكان دائماً يسألني: هل يزورك من الأقارب والأصحاب أحد؟ فأجيب: بعضهم يأتي وبعضهم لا يأتي، لأنهم ينظرون إلي نظرة احتقار لأنني زوجة مجاهد صغير ليس عنده من متاع الدنيا شيء، وهنّ زوجات الموظفين والتجار والأثرياء. وكان يقول لي: لئن كتب الله لك الحياة ستكونين أفضل منهم إن شاء الله في الدنيا، وإن شاء الله يكتب لك الأجر في الآخرة تلقاء صبرك علي.

كان الشيخ يقود الشباب في قاعدة بيت المقدس في شمال الأردن، وكان يدرّبهم ويعلمهم الإسلام وينطلقون من هذه القواعد لمحاربة اليهود والقيام بعمليات ضدهم داخل الأرض المحتلة. وكان ينظم الهجومات على فترات، والمدة التي بين المعارك يستغلها في تدريب الشباب وتربيتهم. وكان يجعل برنامجاً لدراسته في وقت استراحة الشباب وفي وقت نومهم. وكان عندما يأتي إلى بيته في وقت إجازته وهي أربعة أيام فقط من كل شهر، كان لا يترك من يده الكتاب حتى في وقت الطعام، وأصبحت هذه العادة متأصلة فيه إلى آخر أيام حياته.

وبعد نهاية وقت دراسته وعندما كنا نجلس معه على الطعام ويكون عندي أسئلة أريد أن أسأله إياها كنت كثيراً ما أهدده بأن أسكب الطعام على الكتاب إذا لم يترك الكتاب في وقت الطعام فقط، فكان يستجيب أحياناً وكان يعتذر بلطف أحياناً أخرى، ويقول: عندي محاضرة بعد قليل ولا بد أن أحضر، فاعذروني واتركوني أقرأ وأنا أكل، فنتركه.

سادساً: تقييم عام:

يجري تقويم القضايا والخطط إما في مرحلة الدراسة، قبل تبنيها، أو بعد تنفيذها وتطبيقها عملياً. ولكن التقويم يمكن أن يجري أيضاً في مرحلة ما قبل إتمام الخطة، خصوصاً إن واجه التنفيذ عقبات أداء أو تبين استحالة التطبيق. والتقويم المسبق، أي الذي يجري قبل أن تتبنى خطة المشروع يقوم على كثير من الافتراضات والتوقعات، وعلى الثقة بدراسات واستنتاجات الخبراء. ولذلك، تظل النتائج افتراضية إلى أن تتحقق، أو لا تتحقق في عالم الواقع بعد تنفيذ الخطة.

أما التقويم اللاحق، فإنه يستند في معظمه على الحقائق والأدلة المادية والعملية التي وقعت بالفعل، إذ تكون أمامه الأهداف والخطط والمقولات، وتكون أمامه أساليب ونتائج محاولات التطبيق. وعليه، فإن التقويم اللاحق يكون هو الأقرب إلى الحق والصواب، لا سيما عندما يلتزم صاحبه بالموضوعية في أحكامه وفي تفسيره.

وعملية التقويم التي سنحاول القيام بها الآن من النوع الثاني، التقويم اللاحق، الذي يضع أمامه الأهداف والمنطلقات والخطط ويقارنها بما تمّ في عالم الواقع. إذ مضى حتى الآن عشرات السنوات منذ أن أقام الإخوان المسلمون قواعدهم في غور الأردن لأول مرة سنة 1968، وظهرت نتائج جهودهم وجهادهم وتضحياتهم، كما ظهرت توجهاتهم الجديدة بعد تشكل حركة المقاومة الإسلامية (حماس)، وكل هذا يسهل عملية التقويم.

إن أي محاولة لتقييم قواعد الشيوخ لا بدّ أن تأخذ في الاعتبار ثلاثة مواقف:

أولها: موقف الإخوان الفلسطينيين المتحفظ وغير المتعاون مع مؤسسي حركة فتح، وكذلك موقفهم المتحفظ وغير المتعاون أيضاً بالنسبة لإقامة منظمة جهادية تعمل على الساحة الأردنية يؤسسها الإخوان المسلمون في البلاد العربية.

وثانيها: موقف الإخوان المسلمون في البلاد العربية من المشروع، وما طرأ عليه من تعديل وتبديل، ومقدار ما جناه الشعب الفلسطيني عامة، والحركة الإسلامية خاصة، من ربح إن كان قد ربح، ومقدار ما أحرزته قضيته من تقدم أو ما أصابها من تأخر بالقياس إلى أهداف الإخوان المعلنة من إقامة قواعد الشيوخ.

وأخيراً، موقف حركة فتح من حيث رؤيتها وموقفها من قواعد الشيوخ بالقياس إلى أهدافها المعلنة بين سنتي 1957 و1970، وخصوصاً ما أرادت من مشاركة الحركة الإسلامية في العمل الفدائي.

1. محاولة للفهم:

كان لا بدّ من العمل للقضية الفلسطينية، لما تمثله أرض فلسطين من موقع روحي في قلوب المسلمين، ولما يمثله تاريخ الإخوان على أرض فلسطين الذي كتب بدماء الشهداء. ولقد أثبتت التجربة أن الإخوان المسلمين إذا انخرطوا في الجهاد والعمل لخدمة فلسطين، قويت شوكتهم، وكثرت أعدادهم، وازدادت شعبيتهم. وإذا انعزلوا عن هذه الدائرة، ضعفوا وتقلصوا، وقلّت شعبيتهم، وكثرت الاتهامات لهم.

لقد بدأ العمل في إنشاء قواعد الشيوخ نهاية سنة 1968 استعداداً لسنة 1969 تنفيذاً، بدأ صغيراً وانتهى كبيراً واندمج الإخوان فيه بين مقاتل ومتبرع، وقائم بالاتصال مع فتح. وكان أثر الجهاد على الإخوان كبيراً، إذ اخترق الإخوان باعتبارهم حركة ذات تاريخ حاجز الحصار و"الإرهاب الفكري" الذي ضربته الناصرية واليسار حولهم، فغدا الإخوان يتحدثون بملء أفواههم عن الدعوة ولم يستطع أحد أن ينال منهم بسبب موقفهم الجهادي. وأصبح الإخوان في طليعة المجاهدين في سبيل الله بعد أن مزجوا بين القول والعمل، وكان خطباء الجمعة من أمثال الشيخ ذيب أنيس وعبد الله عزام وغيرهما يخطبون الجمعة بسلاحهم وبكامل اللباس العسكري، بدلاً من الاتكاء على السيف الخشبي الذي كان شائعاً في المساجد.

ومن خلال تلك القواعد، استطاع الإخوان كسب أنصار جدد من كافة المستويات، وخصوصاً في المناطق التي قاتلوا منها. كما انعكس الجهاد بشكل إيجابي على الصف الداخلي الذي ازداد تماسكاً، بعد أن دخلته بعض الأفكار التي سادت في أوساط الدعوة آنذاك.

كان العمل الجهادي بركة على الدعوة، تواصلت حتى بعد انتهاء قواعد الشيوخ، إذ استطاع الإخوان الذين تدربوا في القواعد أن يربوا جيلاً من الشباب على الأخوة، وعلى الرجولة والخشونة في المخيمات الصيفية التي كانت تعقد فيما بعد. ولا بدّ للتاريخ أن

يسجل أن استشهاد كوكبة من الإخوان كان له الأثر البالغ في نشر الدعوة لأن الناس يتأثرون بالمواقف المقرونة بالعمل¹⁴⁴.

إن الظروف الذاتية والموضوعية التي رافقت إقامة قواعد الشيوخ كانت على درجة عالية من الصعوبة والتعقيد، وذلك للأمور التالية:

- نقص الخبرة العسكرية لدى الفدائيين الأوائل من الإخوان.
- حالة الحصار والمطاردة التي كانت تقوم بها الدول العربية لكوادر الإخوان، واعتقال العديد منهم، الأمر الذي انعكس سلباً على حجم المشاركة بالقواعد والمعسكرات.
- حملات الاتهام والتشكيك من قبل المنظمات الفلسطينية اليسارية.
- ضعف الحضور الإعلامي للإخوان، وعدم تغطية الكثير من عملياتهم، سواء لأن عملياتهم كان يُعلن عنها باسم العاصفة، أم لأن عدداً من الإخوان أنفسهم كانوا يتخرجون من التعامل مع الإعلام من باب الإخلاص وعدم حب الظهور، أم لأن الإعلام نفسه الرسمي والشعبي كان محكوماً بتيارات مخاصمة أو معادية للإخوان.
- كانت نتيجة كل ذلك، أن عانى الباحث كثيراً في جمع المعلومات وتوثيقها من مصادرها الإعلامية التقليدية، بل إن الوصول إلى اسم الشهيد صلاح الدين أحمد عبد الله على سبيل المثال تطلب جهداً مضنياً، وكذلك الحال بالنسبة للشهيد فوزي أبو الخير.

2. بين منهجين:

بيّن الإخوان الفلسطينيون أنهم لا يعارضون فكرة الجهاد والعمل العسكري من حيث المبدأ، بل إنهم يؤمنون بضرورة تحرير فلسطين وأن التحرير لا يمكن أن يتم إلا بالجهاد القتالي، وأن شعب فلسطين يجب أن يكون في طليعة المقاتلين. ورأى الإخوان الفلسطينيون أيضاً أن خطوات مشروع فتح التحرير تقوم في معظمها على افتراضات وهمية لا يمكن تحقيقها عملياً في عالم الواقع. ومن هذه الافتراضات إمكانية التحرك العسكري الفلسطيني، وافتراض إمكانية الحياد بين الدول العربية والتعامل معها جميعاً بما يخدم القضية، وافتراض أن الدول العربية ستدخل المعركة بكل قوتها بعد أن يبدأها الفلسطينيون ويفرضوها على الجميع، ثم افتراض أن الدول العربية ستكون قادرة على هزيمة العدو الصهيوني وتحرير فلسطين.

¹⁴⁴ سعود أبو محفوظ وفاروق بدران، مرجع سابق، ص 33-34.

كذلك لم يقبل الإخوان الفلسطينيون، ولم يصدقوا أن العمل تحت شعارات غير حزبية يمكن أن يعطي للإخوان كسباً شعبياً. وقد أشار الإخوان إلى عدد من الأخطار التي يمكن أن يجلبها المشروع على القضية الفلسطينية وبعض الأخطار التي تهدد التنظيم نفسه. فقد رأوا أن الحزبيين سيتسللون إلى التنظيم ويحاولون السيطرة عليه، كما أن الأنظمة العربية ستحاول استخدامه بما يخدم توجهاتها وسياساتها. أخيراً أكد الإخوان الفلسطينيون في تقويمهم لمشروع فتح، إيمانهم بأن تحرير فلسطين لا يتم إلا بالطريقة الإسلامية على أيدي الإخوان المسلمين، أو حسب تصورهم من خلال معركة إسلامية جهادية كبرى. ولكن بعد هزيمة يونيو وما ترتب عليها من نتائج، ليس أقلها احتلال الضفة الغربية وقطاع غزة وهضبة الجولان وشبه جزيرة سيناء، أصبح استمرار الكفاح المسلح وتصعيد هذا الكفاح أمراً حتمياً. فكان، والحالة هذه، أن اختلف حكم الإخوان الفلسطينيين على عمل حركة فتح عنه في المرحلة السابقة للهزيمة.

لقد أوردنا في صفحات سابقة خلاصة للمذكرة التي بلور الإخوان الفلسطينيون بها موقفهم، واعدوا فيها حيثياتها. ولهذا سنكتفي بالإشارة إلى النقاط الرئيسية من تلك الخلاصة:

- كان يستحيل على حركة الإخوان نفسها أن تضطلع بأي دور تحت اسمها وشعاراتها لأن القوى المسيطرة على ساحة العمل السياسي العربي كانت ضدها، ولأن القوى المسيطرة على ساحة العمل الفدائي أيضاً كانت ضدها، لا سيما وأن هذا العمل كان يتم من واقع تعدد المنظمات، وارتباطها بتيارات سياسية وبدول وقوى محلية وخارجية معروفة.
- لم يكن ممكناً للإخوان أن يلغوا تنظيمهم وحركتهم لينضموا لفتح لأنهم كانوا يؤمنون، وما زالوا، أن لهم رسالة كبرى يشكل تحرير فلسطين جزءاً منها، إضافة إلى أنهم كانوا يحملون فتح بعض مسؤولية ما حدث، بل كان العاطفيون منهم يحملونها كل المسؤولية، ويجدون مرارة شديدة في حلوقهم بسبب ممارساتها¹⁴⁵.

ومهما يكن من مبررات موقف الإخوان الفلسطينيين، إلا أنه لا بد من الإقرار أن ذلك الموقف قد انعكس سلباً على حجم مشاركة الإخوان الفلسطينيين المقيمين في الأردن

¹⁴⁵ عبد الله أبو عزة، مرجع سابق، ص 147-150.

بقواعد الشيوخ. ومع أنه كان من المتوقع أن تكون المشاركة بعدد أكبر بحيث يؤثر على مسار الثورة الفلسطينية، إلا أنها كانت محدودة بحيث لم تتوسع بالحجم الذي كان مرجواً.

يقول إسحق الفرحان:

كان المأمول أن يتنادى الإخوان من كل أقطار العالم الإسلامي، ولو جاء من كل قطر 100 أو حتى 50. ولكن لم يوضع الزخم الكبير والتأييد الكافي بحيث يصبح لها تأثير عملي داخل تنظيمات م.ت.ف وفتح بالذات. ولو وضع الجهد لربما كان لهم تأثير قوي على تنظيمات فتح الداخلية¹⁴⁶.

كان الإخوان المسلمون الفلسطينيون يتفقون مع مؤسسي حركة فتح على مبدأ وهدف تحرير فلسطين بقوة السلاح. ولكنهم، من خلال استقراء الواقع، كانوا يرون أن مشروع فتح خيالي وغير قابل للتطبيق، وأنه سيجر على القضية الفلسطينية كوارث قاتلة¹⁴⁷. أما موقف إخوان البلاد العربية، فقد انتهت تجربتهم الجهادية من خلال مشاركة حركة فتح في أقل من سنتين، ولكن حديثهم عن الجهاد وفلسطين لم يتوقف، على الرغم من اتهام المنظمات الفلسطينية لهم بالخيانة إثر أحداث أيلول 1970.

في تجربة إخوان البلاد العربية، كانت العلاقة مع اللجنة المركزية لحركة فتح ومقاتلي الحركة في ظاهرها ودية، لكنها كانت متوترة مع الكوادر السياسية التي رأت في الخط الفكري المنهجي للإخوان في قواعدهم مخالفة صريحة لما يتربى عليه عناصرهم على ما كان يسمى بالفكر الثوري الذي كان مزيجاً من أفكار ماو تسي تونغ وتشى جيفارا وفون نجوين جياب Võ Nguyên Giáp، ولكن بنسخة فلسطينية.

لم يكن ما يعرف بالمفوض السياسي لقوات العاصفة يلقي أي استجابة لتنظيراته الثورية داخل صفوف الإخوان، بل كان يُذهل لمستوى الإخوان الثقافي حتى أنه كان أحياناً يوضع في الزاوية الحرجة من خلال النقاشات والحوارات الفكرية التي كانت تجري معه. ومن هنا، كانت تقارير بعض هؤلاء المثقفين الثوريين التي يعبئونها ضد الإخوان توغر صدور استخبارات فتح المعروفة باسم الرصد الثوري.

¹⁴⁶ إسحق الفرحان، مقابلة شخصية، 14/7/1997.

¹⁴⁷ عبد الله أبو عزة، مرجع سابق، ص 160.

كان من نتيجة ذلك، أن استدعى مكتب الرصد الثوري التابع للقطاع الشمالي بقوات العاصفة الأخ أحمد نوفل، وكان قائد الوحدة الغربية بعد استقلال قواعد الإخوان الثلاث، ليوجه تهماً كثيرة، ومن أبرزها: أن الإخوان في القواعد يقرؤون كتاب ”في ظلال القرآن“ لسيد قطب، ولا يرددون أناشيد الثورة. وكان من الممكن أن يُدان الإخوان، لولا دفاع قائد القطاع الشمالي أبو سامي عنهم، وهو من الإخوان الذين تركوا التنظيم والتحقوا بحركة فتح¹⁴⁸.

يصف عبد الله عزام ما رآه في قواعد المنظمات الفلسطينية، ويشير إلى البعد عن الدين، والجهل بأحكامه، والاستهزاء بالذات الإلهية، ويضيف: ”ولقد رأيناهم عندما كان الشباب المسلم المجاهد الذي يحمل السلاح يرفع الأذان في التجمعات الفدائية، كان أبناء [فلاديمير] لينين [Vladimir Lenin] وماو تسي تونغ يصطفون ويرفعون أصواتهم قائلين: إن تسل عني فهذي قيمي، أنا ماركسي لينيني أممي“¹⁴⁹.

ويضيف علان بلال: ”كنا متفقين مع حركة فتح وكانت علاقتنا جيدة مع قواعدهم، ولكنها غير ذلك مع الآخرين، أذكر كان بجانب معسكرنا في العالوك قاعدتان، واحدة للجبهة الشعبية وأخرى للجبهة الديمقراطية، كان المقاتلون فيهما يتحرشون بنا ويستفزوننا، فكنا نلتزم جانب الحذر منهم“¹⁵⁰.

أما القاضي عبد الرزاق أبو العثم، العضو السابق بجماعة الإخوان المسلمين في الأردن، فإنه يضيف أيضاً¹⁵¹: ”عينت قاضياً ومدعياً عاماً في العقبة سنة 1963، وعملت فيها سنتين، وانقطعت صلتني التنظيمية بالإخوان، وإن بقيت علاقات الصداقة والزمالة، وذلك حفاظاً على استقلالية عملي في القضاء وحياديته“. ويتابع القاضي أبو العثم:

انتقلت إلى إربد سنة 1968، وعملت فيها مدعياً عاماً حتى سنة 1972. وكانت صلتني برئيس البلدية حسن خريس آنذاك قوية، وتعرفت بواسطته على قادة فتح الذين كانوا يحضرون إلى بيته دائماً مثل: أبو عمار وأبو إياد، إذ كان خريس

¹⁴⁸ أحمد أبو سعد، مقابلة شخصية، 2010/1/9.

¹⁴⁹ عبد الله عزام، السرطان الأحمر (عمّان: مكتبة الأقصى، 1980)، ص 114-117.

¹⁵⁰ علان بلال، مقابلة شخصية، 2010/4/28.

¹⁵¹ عبد الرزاق أبو العثم، مقابلة شخصية، عمّان، 2001/2/12.

وعرفات زميلان في جامعة القاهرة، الأول رئيساً لاتحاد طلبة الأردن، والثاني رئيساً لاتحاد طلبة فلسطين، وكانا صديقين حميمين.

ويستمر القاضي أبو العثم في تقديم تجربته:

كنت ألتقي قادة فتح في بيت حسن خريس، وصرت متعاطفاً مع فتح، ومن مؤيديها، وكنت أقتطع من راتبي 42 ديناراً لا تعلم عنها زوجتي. وبصدق، كنت أتمنى أن ألبس ابني خالد الذي كان في الثالثة من عمره البدلة التي يلبسها الفدائيون. ولكن موقفى تغير، عندما بدأت الخلافات تظهر بين المنظمات الفدائية والحكومة الأردنية. وفي أحد اللقاءات في بيت حسن خريس وبحضور ياسر عرفات، انتقدت بشدة ممارسات المنظمات الفدائية تجاه المواطنين والجنود الأردنيين، وذكرت أمثلة من هذه التجاوزات، كالاعتداء على الجنود والضباط، واعتقال مواطنين وحبسهم في قواعد الفدائيين. ورد أبو عمار بغضب أن هناك تجاوزات كثيرة تقع بها الحكومة، وقال إنه قادر على إسقاط نظام الحكم في 24 ساعة.

ومن تجربته أيضاً، يذكر القاضي أبو العثم موقفاً تعرض له يوم 1970/9/6، حين أوقفه أحد الفدائيين المسلحين برشاش كلاشنكوف أمام مستشفى الأميرة بسمة، وطلب منه أن يفتح صندوق السيارة. ولكن عندما اقترب القاضي أبو العثم من الشاب المسلح، تعرف عليه، فقد كان متهماً بعدة قضايا جنائية في محكمة إربد، فأمسك به وصرخ: نادوا الكفاح المسلح، هذا من أرباب السوابق.

وعلى الرغم من مظاهر الود التي كان قادة فتح يظهرونها لإخوان البلاد العربية، إلا أن مؤسسي فتح ذوو الأصول الإخوانية بذلوا جهوداً جبارة ليثبتوا للتقدميين العرب والسوفييت ومن قبلهم لجمال عبد الناصر أنهم قطعوا كل صلة سابقة لهم بالإخوان. ولا مراء في أن أجهزة المخابرات التابعة لتلك الدول قد تحققت من ذلك، وإلا لما سمحت لفتح بالنشاط والنمو¹⁵².

أما بالنسبة لموقف حركة فتح، فقد كان هدف الحركة عند انطلاقتها والذي ظلّ بعد ذلك لسنوات هو تحرير فلسطين بكامل حدودها، من النهر إلى البحر، هو ما يمثل طموح

¹⁵² عبد الله أبو عزة، مرجع سابق، ص 162.

الشعب الفلسطيني دون شك، ولم يكن أحد يقبل أقل منه. وقد ظلت فتح تؤكد هذا الهدف بعد مرحلة التأسيس مرات ومرات. كان مؤسسو فتح يتصورون أن الحركة الفدائية ستبدأ القتال، وأن الكيان الصهيوني سيرد بعنف، وأن الجيوش العربية ستشتبك معه إلى أن تحرر فلسطين. وقد أكدت فتح هذا التصور أكثر من مرة فيما بعد.

ففي شهر أيار/ مايو من سنة 1961، قالت فتح عبر مجلتها فلسطيننا: "إن خطة العمل يجب أن تتخذ شكل الحركة الفدائية التي تنطلق من جميع المناطق العربية المحيطة بفلسطين المحتلة. وبمجرد بدء العمليات علينا أن نتوقع رد فعل وحشي على الحدود العربية. ولهذا يجب أن تكون الجيوش العربية جميعها في حالة يقظة لتأديب العدو عند محاولته القيام بعمليات ثأرية على حدودنا"¹⁵³.

تصور مؤسسو حركة فتح أنه سيكون بمقدورهم التصرف بحرية كاملة في مواقفهم وقراراتهم بحيث لا تتأثر تلك المواقف والقرارات بضغوط الدول العربية، وظنوا أنه سيكفيهم ألا يتدخلوا في شؤون الدول العربية حتى تمتنع الدول العربية عن التدخل في شؤونهم. كان مؤسسو فتح يعتقدون أنهم سيتمكنون من استقطاب الشعوب العربية، بحيث إن الجماهير العربية ستكون القاعدة الثورية التي تحول دون الحكام العرب والتمادي في صراعهم أو معاداتهم للثورة الفلسطينية.

أما الواقع المرّ، فهو أن الأنظمة العربية، خصوصاً الثورية، لم تسمح للفدائيين بحرية الحركة عبر حدودها، بل أكثرها منعت التحرك من حدودها بصرامة. وليس هذا فحسب، جاء تدخل الحكومات العربية في شؤون الثورة ومحاولات الوصاية عليها صارخاً وفضيحاً، خصوصاً من دول كان يُنتظر منها أن تكون السند الأول. ولم يكن تدخل هذه الدول بمجرد الضغط السياسي أو المالي، وإنما تعداه إلى تجنيد ضعاف النفوس لتكوين منظمات تآمر بأمر مموليها، واستخدام عناصر للقيام بعمليات تصفية جسدية ضد قيادات فدائية معينة¹⁵⁴.

ومن ذلك، إعلان حركة فتح أن قائد فرقة خالد بن الوليد وأحد مؤسسي منظمة طلائع الفداء المندمجة في فتح، وأحد الرفاق الأوائل للشهيد عز الدين القسام: صبحي

¹⁵³ المرجع نفسه، ص 155.

¹⁵⁴ غازي خورشيد، دليل حركة المقاومة الفلسطينية (بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية - مركز الأبحاث، 1971)، ص 22-23.

محمد ياسين (أبو خالد) قد اغتيل يوم 1968/10/19. وفي 1968/10/22، أذاعت فتح أن عدداً من أعضائها قد اعتقلوا، وأن واحداً منهم سيقدم إلى محكمة ثورية بتهمة اغتيال صبحي محمد ياسين، وحتى الآن لم يعلن شيء عن المحاكمة أو نتائجها¹⁵⁵.

لم تكتفِ الأنظمة العربية باتهام فتح بمحاولة توريطها، بل تعدت ذلك إلى اتهامها بالخيانة. وليس أدل على ذلك ما ذكره ياسر عرفات في حديث صحفي لصحيفة الأنوار اللبنانية أن الأنظمة التقدمية اتهمت فتح بالعمالة للاستعمار، وأضاف:

قبل 5 حزيران كنا نتهم بأننا نريد توريط الدول العربية في حرب هي غير مستعدة لها، وقيل إننا كعملاء لحلف السنتو [Central Treaty Organization (CENTO)] نتأمر لإخراج الأنظمة التقدمية لإسقاطها فوق ساحة القضية الفلسطينية. وبعد 5 حزيران قيل لنا إذا أطلقتم رصاصة واحدة اعتبرناكم مجرمين وخونة... إن عملكم غير المسؤول الآن سيؤدي إلى تدمير الأمة العربية فاهدأوا وكفوا عن عبثكم وإلا...¹⁵⁶.

كما وجهت فتح مذكرة إلى ملوك ورؤساء الدول العربية في 1965/9/7 تطالب فيها بالكف عن ملاحقة قوات العاصفة في مختلف الدول العربية وإطلاق سراح المعتقلين دون تردد، وإلغاء الحظر المضروب حول نشر أنباء العاصفة، وعدم التعرض للفدائيين في أثناء قيامهم بعملياتهم الفدائية¹⁵⁷.

شكل تعدد فصائل وتنظيمات المقاومة الفلسطينية أخطر ما واجه العمل الفدائي منذ انطلاقة حركة فتح سنة 1965، إذ كانت هذه الفصائل في معظمها أسماء فقط دون مكاتب أو معسكرات، وبالتالي لم يكن هناك تنسيق فيما بينها، بل إن كثرة المدعين بالانتماء للتنظيمات الفدائية تسبب بشيوع ظاهرة التسبب في حمل السلاح والتجاوزات المسلكية من قبل البعض، الأمر الذي جرّ على الثورة الفلسطينية معارك جانبية عديدة، كان أبرزها في أيلول 1970، مما أدى إلى إخراج المقاومة الفلسطينية من ساحة تمثل عمقاً استراتيجياً للشعب الفلسطيني وقضيته.

¹⁵⁵ برهان الدجاني (رئيس التحرير)، الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام 1968 (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1971)، ص 89.

¹⁵⁶ غازي خورشيد، مرجع سابق، ص 38.

¹⁵⁷ إميل توما، ستون عاماً على الحركة القومية العربية الفلسطينية، ط 2 (بيروت: دار ابن رشد، 1978)، ص 246؛ وشفيق الحوت، عشرون عاماً في منظمة التحرير الفلسطينية، الشرق الأوسط، 1984/2/3.

لم تكن حركة فتح وحدها التي انكفأت نحو "الفلسطينية"، وإن كانت التقديرات تتفاوت حول عدد هذه التنظيمات بسبب طابعها السري من جهة وبسبب تلاشي بعضها، أو ذوبانها في تنظيمات أكبر من جهة ثانية. وفيما قدر الباحث أميل توما، في تلك المرحلة، عدد هذه التنظيمات بزهاء 40 تنظيمًا، يقول شفيق الحوت أن عددها قد بلغ 17 تنظيمًا¹⁵⁸. وأوردت روز ماي صايغ على لسان بعض المسؤولين في حركة المقاومة الفلسطينية رقمين متباعدين، وصل الأول إلى 44 تنظيمًا، بينما لم يتجاوز الرقم الثاني الـ 14 تنظيمًا¹⁵⁹. أما الشهيد غسان كنفاني، فقد ذكر في صحيفة المحرر اللبنانية وقتها أن أعداد المنظمات الفلسطينية التي نشأت في السنوات القليلة التي أعقبت الانفصال بين إقليمي الجمهورية العربية المتحدة والتي أعطت لنفسها في الغالب اسم جبهة وأحياناً حركة، وصلت إلى نحو أربعين منظمة وجبهة وحركة تراوح عدد أعضائها من حدٍّ أعلى بضعة مئات إلى حدٍّ أدنى، وهذا واقع، عضوين وآلة كاتبة¹⁶⁰.

ما إن حلت سنة 1970، حتى برزت فتح كأغنى وأنجح وأقوى منظمة من منظمات المقاومة، لها جيشها ومستشفياتها ونظام ضمانها الاجتماعي وجباتها، إلا أنها لم تكن قادرة على فرض سيطرتها التامة على نشاطات منظمات المقاومة الفلسطينية الأخرى. فقد وجدت الدول العربية منظمات عديدة، إذ تبنت سورية منظمة الصاعقة، ومن بعدها تبنت العراق منظمته الخاصة الممثلة بجبهة التحرير العربية، فيما حاول الأردن دونما نجاح كبير إقامة منظمة تضاهي المنظمات الفلسطينية قوة. وأخذت الأوساط الفلسطينية ذات الميول الماركسية - اللينينية - الماوية تنشئ منظماتها الخاصة، والتي كانت ذات تأثير كبير بسبب تركيزها على التوعية السياسية وعرضها القضية الفلسطينية ضمن إطار تحليلي للمعسكر الإمبريالي. ومن هنا أخذت مفاهيم الاستراتيجية والدعاية والقيم اليسارية تزداد وضوحاً وانتشاراً، لا داخل الجبهة الشعبية والجبهة الديمقراطية فحسب، بل داخل حركة فتح ذاتها وفي أوساط رجال الفكر الفلسطيني، الشباب بصورة عامة¹⁶¹.

¹⁵⁸ روز ماي صايغ، **الفلاحون الفلسطينيون من الاقتلاع إلى الثورة**، ترجمة خالد عايد (بيروت: مركز الأبحاث العربية، 1980)، ص 227.

¹⁵⁹ عصام سخيني، "الكيان الفلسطيني: 1964-1974"، **شؤون فلسطينية**، العدد 42/41، كانون الثاني/يناير - شباط/فبراير 1975، ص 51.

¹⁶⁰ رياض نجيب الريس ودينا حبيب الريس، **مرجع سابق**، ص 25-29.

¹⁶¹ محمد جلال كشك، **الثورة الفلسطينية: محاولة للفهم** (بيروت: د.ن، 1970)، ص 102-113.

وحسبنا أن نقف عند بعض الآثار التخريبية التي نتجت عن تعدد تنظيمات المقاومة، لعل أبرزها هو انتحال بعضها لعمليات تنظيمات أخرى، مما أساء إساءة بالغة إلى مظهر العمل الفدائي، وأتاح الفرصة للخصوم أن يسخروا من هذا الادعاء الذي يحتم وجود طرف كاذب.

تتمثل سلبية أخرى لظاهرة التعدد التي واكبت العمل الفدائي في الستينيات، في إتاحة الفرصة للعدو الصهيوني لتصفية العناصر الثورية جسدياً ونسبة ذلك لإحدى التنظيمات بزعم الخلافات السياسية، أو أن لديها أدلة على خيانتها وتعاونها مع الاحتلال. ولكن الأكثر شيوعاً، كان قيام أجهزة الأمن الإسرائيلية باغتيال مواطنين أبرياء ونسبة ذلك إلى المنظمات الفدائية مما أثار الاضطراب والبلبة في صفوف الجماهير.

والأخطر من كل ذلك، تلك السلبية المتعلقة باستقزاز الجماهير وعزلها عن المقاومة، عن طريق ارتكاب المنظمات لأفعال تسيء إلى العمل الفدائي وتعرض لحياة وأمن المواطنين، مما أوجد مناخاً مناسباً لتدخل السلطات الراغبة في تصفية العمل الفدائي بحجة حماية أمن المواطنين، بل وأحياناً حماية العمل الفدائي وصيانة شرفه وقديسيته وطهارته. كما أن عمليات التجسس التي قام بها العدو استفادت من هذا التعدد، إذ استطاع عملاؤه تغطية نشاطهم المريب بزعم أنهم يقومون بذلك لحساب تنظيم فدائي تحت أي اسم.

إن تحليلنا لظروف نشأة فتح وتطورها يؤكد أنها كانت على خطأ في توقعاتها المتفائلة بإسراف لنجاح خطتها، الأمر الذي أدى إلى إخفاقها في الوصول إلى الهدف. ولكن فتح من الناحية الأخرى حققت عدداً من الإنجازات تحسب لها كالقدرة على التنظيم، والقدرة على التحرك وسط كل الظروف المعقدة، وتمكنها من تعبئة قوى الشعب الفلسطيني، وإنشاء العديد من المؤسسات والواجهات التي فرضت قدراً من إحساس الآخرين بالكيانية الفلسطينية¹⁶².

3. الإخوان ومقاومة الاحتلال:

اتسمت مرحلة بداية الكفاح المسلح قبل يونيو 1967 بنقطة ضعف أساسية، فرضتها الأوضاع الجغرافية، وهي تنفيذ غالبية العمليات الفدائية عبر الحدود العربية. غير أن

¹⁶² عبد الله أبو عزة، مرجع سابق، ص 160.

نتائج حرب حزيران، واتساع دائرة الاحتلال الصهيوني، ليشمل الضفة الغربية وقطاع غزة، حيث الكثافة البشرية الفلسطينية، والظروف الطبيعية المواتية نسبياً، أتاحت المجال لمحاولة بناء قواعد ارتكازية للثورة الفلسطينية داخل الأرض المحتلة.

ومن أجل إنجاح هذه المحاولة انتقل عدد مهم من كوادر الثورة إلى الداخل، للقيام بمهام عسكرية وتنظيمية في المناطق الفلسطينية المحتلة، وخصوصاً في المدن الرئيسية والمناطق الجبلية. وقد لاقت هذه المحاولة بعض النجاح الملموس في الأشهر الأولى للاحتلال، وأمكن بواسطتها توجيه ضربات قوية ضدّ قوات العدو، كما أمكن استنهاض حالة جماهيرية وتنظيمية لمواجهة الاحتلال الصهيوني¹⁶³.

غير أن هذه التجربة لم تكن حاضرة عند الإخوان المسلمين سواء أولئك القائمين على قواعد الشيوخ، أو حتى قادة الجماعة في الأردن وفلسطين. ولا يمكن أن تكون الأسباب هي ذاتها التي منعت إنشاء قواعد فدائية مستقلة خارج فلسطين المحتلة، ذلك أنه كان للإخوان المسلمين قاعدة تنظيمية عريقة في الضفة الغربية وفي قطاع غزة، بل إن العديد من كوادر الإخوان في الضفة والقطاع انخرطوا في العمل الفدائي مع حركة فتح لأنهم لم يجدوا الحاضنة الإخوانية لمقاومة الاحتلال.

نرى أن الإخوان المسلمين عموماً، والفلسطينيين والأردنيين تحديداً لم يستفيدوا من هذه الفترة والمناخ الإيجابي السائد في تجييش واستنهاض الجمهور في فلسطين المحتلة للجهد ومقاومة الاحتلال تحت راية إسلامية. وفي السياق نفسه، انعكس تسريح المشاركين في قواعد الشيوخ، ورفض الانتقال إلى القواعد الفدائية في جنوب لبنان سلباً على الوجود الإسلامي داخل المخيمات الفلسطينية في الأردن وفي تجمعات اللاجئين في لبنان.

كانت حركة فتح تتوقع أن يشارك الإخوان المسلمين إلى جانبها في مواجهة الجيش الأردني عندما تفجرت الأحداث الدامية في أيلول 1970، لكن ذلك لم يكن وارداً في حساب الإخوان لأبعاد عدة أبرزها البعد الشرعي. ولذلك، أوقف الإخوان العمل بالقواعد، وأبقوا على وجود رمزي فيها حتى حاصرها الجيش واستولى عليها واعتقل حراسها. ولكن حين تبين للسلطات الأردنية أن الإخوان لم يشاركوا في القتال، أفرج عن المعتقلين لديه¹⁶⁴.

¹⁶³ مصطفى طلاس، مرجع سابق، ص 85.

¹⁶⁴ عبد العزيز علي، مقابلة شخصية، 1997/7/30.

وبالنسبة للإخوان المسلمين في الضفة الغربية وقطاع غزة، وإن كان الاحتلال الصهيوني للمنطقتين قد وحد الفلسطينيين لأول مرة منذ النكبة سنة 1948، إلا أن الإخوان المسلمين، كغيرهم من الفلسطينيين في المنطقتين، عاشوا ظروفًا سياسية واجتماعية واقتصادية مختلفة.

كان الجيل القديم من الإخوان الفلسطينيين خارج الأرض المحتلة غير قادر على تحمل أعباء الجهاد، فحركة فتح أخذت منهم معظم العناصر القيادية القادرة على الفعل والمبادرة، بينما من تبقى في نفسه رغبة التصدي والمواجهة أخذته السجون وملاحقة الأنظمة، وظلوا يتجمعون حول بعضهم مخافة الأخطار، تستحوذ عليهم فكرة تأمر جميع الأطراف عليهم دون أن يفعلوا شيئاً يذكر، وجاء بروز حركة المقاومة الفلسطينية المسلحة ليحول دون بروز الإخوان كقوة سياسية ذات شأن. فتنظيم الضفة الغربية لم يكن مهياً من النواحي السياسية أو العسكرية للانخراط في عمل عسكري منظم ومباشر، بعكس فصائل المقاومة الفلسطينية التي تأسست في الأصل لمثل هذا الغرض.

أما في قطاع غزة، فقد كان الإخوان المسلمون يعانون من حالة ضعف وتشتت من جراء الملاحقة والاضطهاد الذي تعرضوا له من قبل الإدارة المصرية. كما أن قيام حركة فتح في أواخر الخمسينيات كان قد سلب تنظيم الإخوان خيرة قياداته وكوادره. ولذلك، كان الإخوان في حاجة إلى بعض الوقت لاستجماع قواعدهم والعودة إلى الساحة كقوة سياسية، ولم يتحقق ذلك إلا في أواخر السبعينيات¹⁶⁵.

تغير الحال على الإخوان في الضفة الغربية الذين كانوا قد اعتادوا على العمل العلني خلال دورهم ومكاتبهم القانونية في المدن والقرى والمخيمات، فأغلقت سلطات الاحتلال دور الإخوان المسلمين، واستولت على بعض الأوراق الموجودة في بعضها¹⁶⁶.

اقتصرت دور الإخوان المسلمين في الضفة الغربية على اللقاءات الفردية، وحلقات الدراسة الشرعية والإيمانية دون أن يكون هناك تنظيم، حتى أن الذين تستدعيهم سلطات الاحتلال من رموز الإخوان كان يقول: نعم كنت من الإخوان، أما الآن فقد

¹⁶⁵ زياد أبو عمرو، مرجع سابق، ص 29.

¹⁶⁶ مخطوط كتبه مبعدون من منطقة الخليل إلى مرج الزهور بجنوب لبنان، حزيران/ يونيو 1993.

أغلقت دور الإخوان وانتهى كل شيء. وقد استمر هذا الحال إلى سنة 1971، حين أخذت التشكيلات التنظيمية السرية تأخذ طريقها للجهاد¹⁶⁷.

أما في قطاع غزة، حيث اعتاد الإخوان على العمل السري وأجواء الملاحقة والمتابعة، فإنهم كانوا أقدر على التعامل مع هذه الظروف. ولذلك سرعان ما تداعت قيادات ورموز الإخوان إلى لقاء في منزل محمد خليل الغرابلي بحي الشجاعية في مدينة غزة بعد نحو شهرين من الاحتلال، حيث اختاروا هيئة إدارية لقيادة الجماعة تمثل مختلف مناطق قطاع غزة¹⁶⁸.

وضع الإخوان في هذا اللقاء أهدافهم وخطة تحركهم لكسب الأعضاء الجدد عن طريق الزيارات الفردية ودروس المساجد، وكانت مهمة عسيرة. إذ كانت الجماهير ما تزال مشدودة للرئيس جمال عبد الناصر. لذلك، كان محور الصورة الإخوانية التي رسمها عهد جمال عبد الناصر في أذهان الناس، واستبدالها بصورة جديدة مشرقة على قمة الأهداف التي وضعها الإخوان، ثم الانتشار في المجتمع، وتحديد مسيرة الإخوان والموقف من الاحتلال¹⁶⁹.

وأخيراً، زيارة الضفة الغربية بهدف بناء العلاقات مع الإخوان هناك وربط الخيوط مع مناطق الضفة الغربية التي لم تكن مرتبطة بعضها ببعض لأنها كانت جميعاً تتصل بقيادة الإخوان في الأردن قبل يونيو 1967. وفي سنة 1968، اتصلت الهيئة الإدارية للإخوان في القطاع مع الإخوان في الأردن¹⁷⁰.

لم يكن الإخوان المسلمون في تلك المرحلة ينظرون بإيجابية إلى مقاومة الاحتلال الإسرائيلي في ظلّ الأوضاع السائدة، ولم يكن الأمر في مقدمة أولويات الجماعة، لكونها رتبت أولوياتها ابتداءً من إصلاح الفرد وإيجاد المجتمع الإسلامي القادر على إقامة الدولة الإسلامية، كي تنضج الأوضاع لتفجير المقاومة ضدّ الاحتلال، حيث كان الإخوان يرون أن المقاومة ستبقى عديمة إن هي تمت من دون توافر شروطها الإسلامية.

¹⁶⁷ حماد الحسنات (أحد قادة الإخوان في قطاع غزة)، مقابلة شخصية، مرجع الزهور، 1993/6/3.

¹⁶⁸ عبد الفتاح دخان (أحد قادة الإخوان في قطاع غزة)، مقابلة شخصية، مرجع الزهور، 1993/6/3.

¹⁶⁹ حماد الحسنات، مقابلة شخصية، مرجع الزهور، 1993/6/3.

¹⁷⁰ عدنان أبو عامر، الحركة الإسلامية في قطاع غزة بين الدعوة والسياسة (القاهرة: مركز الإعلام العربي، 2006)، ص 10-11.

وبحسب رأي عدد من الباحثين، فقد واجهت جماعة الإخوان المسلمين حملات شديدة من الانتقادات الحادة، بسبب تأخرها عن اللحاق بركب العمل المقاوم في الأرض المحتلة، واتهمت بالتخلي عن الواجب الشرعي المتمثل في الجهاد، وهو الأمر الذي وجدت فيه فصائل منظمة التحرير الفلسطينية مدخلاً مهماً للتشكيك في نهج الإخوان وعرقلة مساعيهم لجذب الجمهور الفلسطيني.

القيادي في الإخوان المسلمين وأحد مؤسسي حركة حماس، محمد حسن شمعة، يسرد جملة من الأسباب التي رأت فيها الجماعة آنذاك أسباباً موضوعية لتأجيل الانخراط في المقاومة، أبرزها أن الجماعة كانت في حال من الضعف كماً وكيفاً، لا تمكنها من القيام بأي عمل عسكري ناجح ومستمر في ذلك الوقت، بل إنه يذكر أن عدد الإخوان في قطاع غزة سنة 1969 كان نحو خمسين شخصاً¹⁷¹.

ويضيف محمد شمعة أيضاً سبباً آخر، ألا وهو ضعف الإخوان في البلاد العربية آنذاك، وخصوصاً التنظيم الأم في مصر، مما يحرم المقاومة الإسلامية في الأرض المحتلة من العمق والمساعدات الضرورية. كما أن الإخوان المسلمين كانوا على اقتناع بأن أي عمل عسكري ضد اليهود الصهاينة، من دون الإعداد النفسي والروحي والمادي، سيكون مصيره الفشل، مشيراً في الوقت نفسه إلى حال الإحباط واليأس المنتشرة في أوساط الفلسطينيين في ذلك الوقت، وبالتالي فإن العمل العسكري ضد اليهود الصهاينة، سيكون لا طائل من ورائه¹⁷².

لقد كان وقع الاحتلال صعباً وقاسياً على الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة، ومن بينهم الإخوان المسلمين، الأمر الذي دفع بعض كوادر الإخوان إلى المبادرة بالعمل الجهادي من تلقاء أنفسهم، وذلك بالتنسيق والعمل من خلال خلايا ومجموعات حركة فتح. ومن هؤلاء الشهيد رمضان عاشور البنا (42 عاماً) الذي انتقل إلى جوار ربه بعد تعذيب شديد في سجون الاحتلال سنة 1971. وكان الشهيد من المجاهدين في حرب فلسطين سنة 1948، كما كان مديراً لمكتب المؤتمر الإسلامي العام لبيت المقدس في القدس¹⁷³.

¹⁷¹ محمد حسن شمعة (أحد قادة الإخوان في قطاع غزة)، مقابلة شخصية، مرج الزهور، 1993/6/3.

¹⁷² المرجع نفسه.

¹⁷³ المجتمع، 1971/7/6، ص 9.

النموذج الثاني، هو ياسر حسين محمد زيادات من بني نعيم بقضاء الخليل. ففي المراحل الأولى اقتصر نشاطه على تقديم خدمات للفدائيين المطاردين، يزودهم بالمؤن ويطلعهم على ما يدور في المنطقة، ويحذرهم من سلطات الاحتلال، ويبلغهم عن تحركات الدوريات العسكرية. ويحكي أنه عندما كان يقع عمل فدائي في المنطقة، كان يقف على ناصية الشارع ويشير لسلطات الأمن الإسرائيلية إلى الاتجاه المعاكس لانسحاب الفدائيين.

تعرض ياسر زيادات للاعتقال سنة 1973، حيث أدين في المحكمة العسكرية بتقديم خدمات للمقاومة، فحكم عليه بالسجن الفعلي لمدة ستة أشهر. فكان له السجن مدرسة ممتازة، خرج منه ليلتحق بحركة فتح في بيروت ويرتقي فيها حتى أصبح مدرباً، ثم عاد إلى الضفة الغربية وبدأ بتجنيد خلايا مسلحة. وقد نفذ ياسر زيادات مع ثلاثة من رفاقه عملية الدبوا الشهيقة، والتي استهدفت مجموعة من المستوطنين في بيت هداسا بمدينة الخليل سنة 1980، مما أسفر عن مقتل ستة منهم وجرح 16 آخرين.

محامي الدفاع درويش ناصر الذي ترافع دفاعاً عن ياسر وإخوانه، وأصدر كتاباً يوثق عملياتهم الجريئة، كتب في تعريفه عن ياسر زيادات بأن "دوافع انضمامه لحركة فتح كانت دينية قومية، فعندما كان يطلب منه في عملياته العسكرية اختيار كلمات السر اعتاد أن يختارها من آيات القرآن أو الشعارات الدينية"¹⁷⁴.

الذي أقام الاتصال مع خلية الدبوا وأوجد لها المخبأ هو تيسير محمود طه أبو سنيينة (ماهر)، عضو جماعة الإخوان المسلمين. وقد تجند تيسير لحركة فتح في أثناء وجوده في جامعة دمشق سنة 1978 بعد جدال حول موقف المنظمة من الإسلام، وبالرغم من أن فهمه للإسلام يختلف عن فهم حركة فتح.

ويضيف درويش ناصر معرفاً بهذا المجاهد:

لتجنيد ماهر كانت أهمية خاصة، فهو الذي اختار بناية الدبوا للهجوم عليها، الأمر الصادر من بيروت بضرب المستوطنين، كان عاماً. شاب من الخليل فقط كان بإمكانه أن يحدد بدقة هذه العملية ويختار الوقت المناسب

¹⁷⁴ درويش ناصر، عملية الدبوا كما يرويها منفذوها (عمّان: دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية، 1990)، ص 27-28.

والأكثر ملاءمة للهجوم. وماهر كان الشاب الخليلي. ماهر مسلم متعصب
وكان عضواً في حركة الإخوان المسلمين عندما عرضوا عليه التجنيد لفتح
تردد¹⁷⁵.

4. أوجه التقصير:

وبرأي عبد الله عزام، فإن الحركة الإسلامية قصرت من ناحيتين: الأولى، أنها تأخرت
في التحرك للجهاد من أجل فلسطين، فسبقتها المنظمات اليسارية والقومية والشيوعية
التي يجمعها العداء للحركة الإسلامية. فإذا كانت الحركة الإسلامية تعيب على المنظمات
الثورية يسارياتها وانحرافها وتخبطها، فما ذاك إلا لغياب الحركة الإسلامية عن ساحة
العمل المقاوم من أجل فلسطين.

يذكر عبد الله عزام في مذكراته، أن الرصد الثوري لحركة فتح طلبه لمحكمة عسكرية
لأنه كان ينتقد الثائر البوليفي تشي جيفارا في محاضراته وأحاديثه داخل القاعدة،
ويقول إنه، أي عبد الله عزام، فدائي مسلم جاء للجهاد في سبيل الله. وبعد هذا الموقف،
بإمكان القارئ أن يتصور الضيق البالغ الذي كان يأخذ بخناق أبناء الحركة الإسلامية،
وهم يعيشون في ذلك الوسط.

أما العامل الثاني الذي أثر بشكل ملموس على علاقة الإخوان بالمنظمات الفلسطينية،
وجعل تلك المنظمات تنتفش وتنتفخ وتزداد استفزازاتها، فهو قلة عدد المشاركين من
الإخوان بقواعد الشيوخ بالمقارنة مع عدد المنتسبين لحركة فتح والمنظمات الفلسطينية
الأخرى. والحق أنه لولا الله، ثم لافته فتح، لمنعت المنظمات اليسارية والقومية الإخوان
من الاستمرار في الجهاد في سبيل الله أو لمزقوهم إرباً¹⁷⁶.

إن الجيل الذي تولى قيادة تنظيم الإخوان المسلمين الفلسطينيين يتحمل المسؤولية
التاريخية عن العامل الثاني، أي قلة عدد المشاركين في قواعد الشيوخ. ذلك، أنه كان غير
قادر على تحمل أعباء الجهاد، فحركة فتح أخذت منه معظم العناصر القيادية والطموحة
والقادرة على الفعل والمبادرة.

¹⁷⁵ المرجع نفسه، ص 33.

¹⁷⁶ عبد الله عزام، حماس: الجذور التاريخية والميثاق، ص 76-78.

أما ما تبقى في نفوسهم من رغبة التصدي والمواجهة، فقد أخذته السجون وملاحقة الأنظمة، وظلوا يتجمعون حول بعضهم مخافة الأخطار، تستحوذ عليهم فكرة تأمر جميع الأطراف عليهم دون أن يفعلوا شيئاً يذكر. ولعل من أهم الأسباب التي جعلت الإخوان الفلسطينيين يتأخرون عن المشاركة الفعلية والشاملة في العمل الفدائي، هو قوة حركة فتح وقيادتها لمنظمة التحرير الفلسطينية، والتفاف الفلسطينيين ومعهم العرب حولها، وتعليق آمالهم عليها، ودعم الأنظمة العربية اللا محدود لها. حيث وجّه الشعب الفلسطيني طاقاته وشبابه وآماله باتجاه حركة المقاومة التي كان يصعب على الناس أن يسمعوا صوتاً آخر أو خطاباً سياسياً مختلفاً عن صوت منظمة التحرير الفلسطينية، وصوت من يؤيدها ويساندها¹⁷⁷.

5. تجربة غير مكتملة:

كان لا بدّ من العمل للقضية الفلسطينية، لما تمثله أرض فلسطين من موقع روحي في قلوب المسلمين، ولما يمثله تاريخ الإخوان على أرض فلسطين الذي كتبوه بدماء الشهداء. كانت قواعد الشيوخ بالتأكيد تجربة تاريخية للإخوان المسلمين في إطار الدفاع عن فلسطين ونصرة أهلها، تضاف إلى تجاربهم السابقة واللاحقة، لكنها كانت تجربة ناقصة وغير مكتملة لأسباب ثلاث:

الأول: أنها لم تكن تجربة مستقلة، إذ لم يؤسس الإخوان منظمة فدائية لها أهدافها واستراتيجيتها وقياداتها وهيكلها التنظيمية الخاصة، بحيث تعبر عن رؤيتهم، وتعمل على تعبئة الجماهير حول مشروع جهادي تتحمل الحركة أعباءه مثلما عمل غيرهم. الثاني: كانت أيضاً تجربة ناقصة، لأن الإخوان الفلسطينيين لم يوافقوا على المشاركة فيها.

الثالث: إن التجربة لم تستمر، فعندما بدأت الحرب بين الجيش الأردني والمنظمات الفلسطينية، جمع الإخوان أسلحتهم، ووقفوا على الحياد بين الطرفين، لتنتهي هذه التجربة نهاية كاملة بعد قرابة عامين من بدايتها.

يلخص ذيب أنيس إيجابيات تجربة الإخوان المسلمين العسكرية في قواعد الشيوخ بالنقاط التالية:

¹⁷⁷ خالد نمر أبو العمرين، مرجع سابق، ص 237.

- تدريب عدد كبير من الإخوان على مهارات القتال والقيادة والخبرة العسكرية، وخصوصاً السوريين والسودانيين.
- بروز رموز إخوانية مجاهدة.
- الترويج للفكرة الإخوانية وإعطاء صورة رائعة عن معاملة الإخوان للأهالي بعكس الصورة التي رسمها الإعلام الناصري.
- تماسك الصف الإخواني الداخلي.
- استطاع الإخوان الذين قادوا الجهاد بما كسبوا من مهارات، أن يبثوا نفساً جديداً في صفوف التنظيم عند عودتهم إلى شعبهم مما دفعهم إلى قيادة التنظيم في البداية.
- المحافظة على العناصر المندفعة من أن تلتحق بالمنظمات.
- كسب الكثير من المخلصين من أبناء الفصائل وأهالي القرى إلى الدعوة.
- شكلت القواعد محطة مهمة في تاريخ التجربة الإخوانية الأردنية.
- الإعذار إلى الله بالقيام بالواجب الشرعي.

أما السلبات، فإن الشيخ ذيب يجملها في إحجام عدد كبير من إخوان الأردن عن التطوع، وظهور آراء إخوانية تدعو إلى تأجيل الجهاد حتى تتوفر الأرض الصلبة، وممانعة البعض العمل تحت لافتة حركة فتح، وأخيراً ظهور بساطة خبرات الإخوان العسكرية¹⁷⁸.

¹⁷⁸ إبراهيم حامد، مقابلة شخصية، عمان، 1996/4/7.

The Shuyukh Camps The Resistance of the Muslim Brothers Against the Zionist Project 1968–1970

هذا الكتاب

يسعى هذا الكتاب إلى توثيق وتاريخ إحدى العلامات الفارقة في مسيرة الإخوان المسلمين في العمل لقضية فلسطين. ويُعدّ محاولة للإسهام في تسليط الضوء على جانب من التاريخ الفلسطيني، من خلال التعريف بمرحلة مهمة من مراحل الصراع مع العدو الصهيوني في الفترة 1968–1970.

يتميّز هذا الكتاب الذي تناول معسكرات الإخوان المسلمين وقواعدهم في الأردن ودورها الجهادي؛ بالموضوعية في الكتابة وبالاعتماد على مصادر معلومات موثوقة، وخصوصاً التاريخ الشفوي، من خلال روايات شهود العيان؛ الذين شاركوا في الحياة الجهادية في معسكرات الشيوخ؛ مع ملاحظة ندرة المادة المكتوبة والمدونة في هذا المجال.

وقد اختتمت فصول هذا الكتاب بعدد من الملاحق الوثائقية التي تتيح للقارئ فرصة استكمال الصورة الشاملة عن معسكرات الشيوخ، والتطورات المحلية والإقليمية المؤثرة في مسار الأحداث في تلك الفترة.

ISBN 978-9953-572-09-3



9 789953 572093



مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات

Al-Zaytouna Centre for Studies & Consultations

ص.ب. 14-5034 بيروت - لبنان

تلفون: +961 1 803 644 | تليفاكسي: +961 1 803 643

info@alzaytouna.net | www.alzaytouna.net

